الماجدة...

ذكرياتٌ بلا حبرٍ وورقٍ



رواية

عبد الله غالب البرغوثي

رواية

الماجدة... ذكرياتٌ بلا حبرٍ وورق

عبد الله غالب البرغوثي



الماجدة...
ذكرياتٌ بلا حبرٍ وورقٍ



من أقوال الكاتب:

أعلم أنني اليوم أعيش في ظلمة زنزانة العزل الانفرادي منذ سنين طويله .. طويلة جداً حتى انني لم أعد أحصيها.

ولكن أذكر قبل دخولي إلى العزل أنني عشت ستة أشهر في زنازين التحقيق شاهدت خلالها الموت .. كلمته وكلمني .. لمسته في لحظات عديدة .. ولكني تغلبت عليه بعون من الله القاهر القهار ..

رأسي عالياً و راية النور رفعت راية التوحيد والجهاد اعلى .. في زمن الذل والهوان.



من إصداراتنا

بسم الله الرحمن الرحيم

من أقوال المجاهد عبدالله البرغوثي:

لا تنسوا المهندس في عتمة عزلته لقد كان فيكم للحريه عنوانا

المــاجدة.. ذكرياتٌ بلا حبرٍ و ورقٍ

الطبعة الأولى

2012م – 1433هـ
بيروت – لبنان

تصميم وإخراج وطباعة
Golden Vision sarl +961 1 820434

فهرس المحتويات

المقدِّمة

الماجدة هي قصة فتاة أبحرت ببحرٍ هائجٍ ذي عواصف رعدية ماطرة، كادت أن تغرق المرة تلو الأخرى، إلاّ أن تمسّكها بإيمانها المطلق بالله عزّ وجلّ مكّنها من الوصول إلى شاطئ السلامة والحرية.

مشاكسةٌ ثرثارة هي الماجدة أحياناً... وصامتةٌ حزينة هي الماجدة أحياناً أخرى، تتقاذفها أمواج بحر الظلم والقسوة والإحتلال.. بحرٌ مليء بصخور الألم والحسرة والقهر.. بحر عجز أقوى الرجال عن خوضه، إلاّ أن الماجدة خاضته رغماً عنها تارةً وبرضاها تارةً أخرى.. الماجدة هي أم الشهيدة وزوجة المقاوم، وهي المقاومة زوجة أبي الشهيدة.. وهي أم نور وأمل.. وهي أيضاً النور والأمل.

كتبت هذه الرواية، وأنا بداخل قبو زنزانة العزل الإنفرادي، الذي أمكث بداخله منذ عام 2003 وحتى يومنا هذا... كتبتها وأنا أبحث عن الأمل والنور، بعد أن تبدّد الوهم المتبدد، وبقيت وحيداً فاقداً نور الشمس التي ما عدت أذكر شكلها، فاقداً الأمل في الحرية التي نسيت طعمها؛ بسبب مرارة الأسر.. مرارة العزلة عن النور والأمل.

عبد الله غالب البرغوثي... مقاوم لم يركع إلَّا لله تعالى، وهو صاحب أعلى حكم بتاريخ القضية الفلسطينية، المحكوم بـ 67 مؤبداً وخمسمائة عام.. فداءً لفلسطين والقدس.. وابتغاءً لمرضاة الله عزّ وجلّ.

الإهداء

أهدي رواية الماجدة إلى:

أمي صفاء سعيد البرغوثي.. التي كنت سبباً في جعلها تعيش معاناةً أقسى وأصعب من معاناة الماجدة، عندما خضت معركتي التي ما زالت مستمرة مع العدو الصهيوني حتى اليوم...

وأهديها إلى كل أمّ ودّعت شهيداً أو شهيدةً.. إلى كل أمّ أسيرٍ أو أسيرةٍ...

وأهديها إلى سيدة الإعلام المقاوم ابنة القسام... أحلام التميمي...

وإلى أختيّ ريم وفائدة البرغوثي اللتين جعلتا حلمي حقيقة عبر نشرهما لهذه الرواية...

الماجدة... ذكريات بلا حبر وورق

بداية النهايات

ها أنا اليوم أعود إلى دفتر مذكراتي لكي أدوّن بين طيات صفحاته الأخيرة نهاية أحلامي التي لم يتحقق منها أي شيء، تلك الأحلام البسيطة المتواضعة.. ضاعت لأنني لم أكن أملك القوة ولا الإرادة لكي أدافع عنها، وأناضل من أجل تحقيقها... فأنا مجرد فتاة ساذجة عادية المبادرة، مجرد فتاة رسموا لها دربها ودفعوها لكي تسير عليه... وسرت.

سرت وأنا مغمضة العينين، سرت إلى ذلك النصيب الذي لا مفرّ منه إلا إليه.. هكذا قالوا لي، أقنعوني فاستسلمت لإرادتهم، استسلمت لأحقق لهم أحلامهم التي كانوا يخططون هم لها.

أظن أنني غبية.. أو أن الغباء مني قد استيقظ عندما استيقظت صباح هذا اليوم... الذي أنهى بداية اثني عشر عاماً دراسياً.. اليوم سوف أقدّم آخر امتحان من امتحانات الثانوية العامة، وسوف أعود بعد ذلك إلى منزلي لكي ألقي ملابس المدرسة، ألقيها ليس استعداداً لشراء ملابس الجامعة، تلك الجامعة التي كنت أحلم أن أرتادها لكي أدرس في كلية الصحافة... لن أدخل الجامعة ولن أشتري ملابسها أيضاً، ما دمت لن أدخلها، لكني اليوم على موعد مع أمي وخالتي أم عوض، لكي نذهب سوياً وبصحبة ليلى زوجة أخي نجيب؛ لكي يشترين لي ملابس الزفاف، تلك الملابس ذات الألوان المتنوعة، والتي لم أعتد عليها من قبل، فأنا معتادة على اللون الأسود أو الكحلي أو حتى الرمادي، لكنهم اليوم يردْنَ مني شراء الملابس الوردية والحمراء، يردْنَ مني شراء الفستان الأبيض... فستان الزفاف.

لقد دبّرت ذلك كله ابنة خالتي ليلى، فهي زوجة أخي الأكبر، وأرادت أن أصبح زوجة أخيها الأصغر إسماعيل، تدبّرت ذلك منذ أعوام من خلال التلميح تارةً

والإقناع تارة أخرى، وذلك من خلال تصوير أخيها إسماعيل على أنه الفارس الآتي على حصانٍ أبيض لكي أركب خلفه، وأحلّق على ظهر الحصان الأبيض المجنّح في سماء تحقيق الأحلام.

تلك الأحلام التي لم أرَ بينها أحلامي أنا ماجدة الفتاة التي رغبت بأن تصبح صحفيّة لكي تطارد الفساد، وتفضحه من خلال صفحات الصحف اليومية، ومن خلال صفحات مواقع التواصل الاجتماعية في الشبكة العنكبوتية، أو من خلال أوراقٍ أكتب عليها الحقيقة لكي ألقي بها في ساحة مدرستي محذرة الطالبات من أنّ الحلوى التي تباع في مقصف المدرسة هي حلوى منتهية الصلاحية.

حدث ذلك قبل أعوام عندما عملت في مقصف المدرسة، فوجدت أن معظم الحلوى التي كانت تباع للطالبات منتهية الصلاحية، وأن صلاحيتها تقارب على الانتهاء، فعدت إلى منزلي في ذلك اليوم، ليس لأكتب ما رأيت في دفتر مذكراتي بل لكي أكتب ما رأيته على أوراق كثيرة قمت بنشرها في ساحة المدرسة... وما أن فعلت، حتى تعالت أصوات الطالبات، فأغلق المقصف وأتلفت الحلوى الفاسدة.

فعلت ذلك بصمت، ولم أكشف عن ما فعلت إلاّ بعد عدة أيام عندما كتبت ما حدث في دفتر مذكراتي، ذلك الدفتر الذي أكتم بداخله أسراري.. وأحلامي.. وحتى تطلّعاتي إلى المستقبل.

حُرمت من تحقيق تلك التطلّعات لكي أحقق تطلعات ليلى، تلك الليلى الخبيثة الماكرة، المتسلطة أيضاً، فعلى الرغم أن أخي نجيب هو أكبر إخوتي، إلاّ أنه رغم قوته وهيبته بيننا، فهو ألعوبة بين يدي ليلى تحرّكه كما تشاء وترغب.

لقد كانت ليلى تملك من الدهاء والمكر الكثير، بحيث أنها كانت تدير مشروع زفافي مع أخيها بدون أن تظهر هي بالصورة بشكلٍ مباشرٍ أمام أمي.. أمي التي كانت لا تحب ليلى، ولا تحب ألاعيبها، فمنذ وفاة والدي، وليلى تحاول أن تكون هي سيدة المنزل، لكونها زوجة أخي الأكبر نجيب، إلاّ أن أمي كانت تُفشل مخططاتها بمساعدة أخي الأصغر ناصر وزوجته صباح وأختي فاطمة وزوجها

عبيدة، فقد كان هؤلاء ضد ليلى ونجيب، وضد أخي الأوسط إبراهيم وزوجته سميرة، فسميرة كانت تابعةً مخلصةً لأختها الكبرى ليلى.

أما أنا، فقد كنت الطفلة أو الفتاة الصغرى التي كانت ترى وتسمع، وكانت أيضاً تدوّن كل ما يجول بخاطرها في دفتر المذكرات.. ذلك الدفتر الذي كانت أختي فاطمة ما أن تنتهي من السلام على والدتي حتى تندفع مسرعةً نحو غرفتي لكي تقلّب به، لعلها تجد بداخله ما يساعدها على التصدي لليلى وأختها سميرة.

كانت فاطمة تجد الدفتر، وكانت تقرأ ما بداخله أيضاً، لكنها كانت دائماً ما تحتاج لي لكي أقرأ لها الرموز التي كانت تملأ السطور.. فقد كنت معتادة على أن أضع رمزاً ما بعد وقبل وبين كلامي الذي كنت أكتبه عما كنت أشاهده وأسمعه من مشاحنات يومية بين كلا الطرفين.

فقد كان والدي –رحمه الله– قد قام ببناء عمارة سكنية مكوّنة من أربعة طوابق، وقد سكن والدي مع والدتي ومعي أنا في الطابق الأول، وسكن أخي الأكبر نجيب وزوجته ليلى في الطابق الثاني، وسكنت أختها سميرة وأخي إبراهيم في الطابق الثالث، أما أخي الأصغر ناصر فقد سكن مع زوجته الطيبة صباح في الطابق الرابع.

لقد كان جوهر المشاكل يعود إلى رغبة وطمع ليلى في الحصول على الطابق الأول الذي كنت أسكنه أنا وأمي لوحدنا بعد وفاة والدي، لكي تحوّله إلى جزء من شقتها في الطابق الثاني، فيصبح مسكننا أنا وأمي قاعة استقبال لضيوف ليلى الكثر... أولئك الضيوف التي لم يكن باستطاعة ليلى استقبالهم لولا زواجها بأخي الطبيب نجيب قبل خمسة عشر عاماً.

فقبل أن تتزوج ليلى بأخي كانت تعيش في فقر مدقع، وكانت تنام مع أخوتها وأخواتها الثمانية في غرفة واحدة في أحد مخيمات فلسطين المحتلة، فقد عاشت عائلة خالتي أم عوض في مخيم جنين على مقربة من مدينة جنين في شمال فلسطين، ولقد كان وضعهم المادي صعب، بل صعب جداً، أما نحن فقد ولدنا وعشنا في دولة قطر، وهناك درس أخي نجيب الطب، وأخي إبراهيم الهندسة، وأخي ناصر الحقوق.. ودرست أختي فاطمة الأدب العربي، أما أنا فلسوء حظي قرر والدي العودة

إلى الأردن لكي يستقر بها هو وإخواني وأمي، وهناك في عمّان أكملت دراستي المدرسية، وهناك أيضاً زوّج والدي أخي نجيب فور إكماله لدراسته الجامعية من ليلى، وأتبع زواج نجيب بعام بزواج أخي إبراهيم من سميرة أخت ليلى وابنة خالتي في نفس الوقت...

أما أخي ناصر فقد رفض رفضاً قاطعاً الزواج من أخت ليلى وسميرة علياء، وأصر على الارتباط بزميلته في الجامعة صباح، وهكذا فقد كان أصغر إخوتي الذكور المتمرّد الأول الذي تبعته أختي فاطمة بعد أن رفضت الزواج من عوض أخو ليلى الأكبر، وأبلغت والدي بنية زميلها في الجامعة والأستاذ المساعد عبيدة التقدم لخطبتها والزواج منها، ولقد كان لها ما أرادت، وقد أحب والدي عبيدة كثيراً، خاصةً أنه كان أستاذاً مساعداً يحاضر في مسائل علوم أصول الدين الإسلامي، ولأن والدي إسلامي صاحب استقامة، فلقد زوّج أختي فاطمة لعبيدة بمهرٍ عبارة عن دينار أردني واحد، ولم يشترط عليه سوى شرط واحد وهو أن يعامل فاطمة بما أمره ديننا الإسلامي السمح، ولقد التزم عبيدة طوال فترة زواجه من أختي فاطمة بذلك.. وطوال تلك الأعوام لم أرَ أو أسمع فاطمة تشكو من زوجها عبيدة، وحتى بعد وفاة والدي، فقد كان عبيدة أقرب لوالدتي ولي من إخواني نجيب وإبراهيم. أما أخي ناصر فقد كان هو الآخر مثل عبيدة وكانت زوجته صباح مثل أختي فاطمة، أي أربعة في مقابل أربعة، أما أمي فقد كانت لا ترغب في أن تغضب أحداً منهما، ولم تكن تريد أن تكون طرفاً مباشراً في الصراع... ذلك الصراع الذي كنت أظن أنه يتمحور حول الشقة التي كانت والدتي تسكن معي بها، إلاّ أنه كان أكبر من ذلك بكثير، فقد كان والدي قبل أن يتوفاه الله قد اشترى في مدينة جنين عدداً من قطع الأراضي الزراعية التي كانت مزروعة بأشجار الزيتون، وكان والدي أيضاً قد قام بشراء قطعة أرض كبيرة أنشأ عليها مصنعاً يعمل بعصر الزيتون وتعبئته، وكان إنتاج ذلك المصنع يصدّر إلى قطر، حيث كان والدي ما يزال يملك أصدقاءً يساعدونه على تسويق منتجات المصنع من زيت الزيتون.

وهنا كانت المشكلة، وكان الصراع، فبعد وفاة والدي أصبح عوض أخ ليلى هو الذي يدير المصنع في فلسطين بعد أن كان مجرد عاملٍ أو مشرفٍ على العمال.

فعلى الرغم من أن والدي كان قد استقر في عمّان، إلاّ أنه كان يسافر إلى فلسطين كلما تمكّن من الحصول على تأشيرة دخول من قبل قوات الاحتلال، وكان يمضي وقته في رعاية أرضه المغروسة بأشجار الزيتون، وفي صيانته وتطوير مصنعه ومعصرته.

أما اليوم، فقد أصبح العامل الجاهل هو من يتولّى إدارة ما بناه والدي، وأنفق عليه معظم ماله، وعلى الرغم من أن المصنع كان يدار أثناء غياب والدي من قبل مدير إنتاج، إلاّ أنه بمجرد وفاة والدي قام عوض بفصل هذا المدير بمباركة أخي نجيب وبدون استشارة أحد، ووضع عوض مكان ذلك المدير صديقاً له، ووضع نفسه مديراً عاماً على المصنع وعلى مزارع الزيتون أيضاً.

تركت ذلك الصراع على أوراق دفتر مذكراتي، وكتبت كلاماً يخص صراعاً من نوع آخر، فقد رفضت اليوم أن أشتري تلك الملابس الوردية والحمراء والمزركشة، رفضت ذلك رفضاً قاطعاً، فلم أكن أتخيّل نفسي أنا الفتاة المنقبة أن أرتدي مثل تلك الملابس حتى ولو كان ذلك لزوجي.

لقد ارتديت النقاب قبل عام تقريباً، فقد جرّبت ارتداء نقاب أختي فاطمة، وأعجبني ذلك، وعندها طلبت من فاطمة أن تشتري لي نقاباً خاصاً على مقاسي، إلاّ أن فاطمة عارضت في البداية وقالت لي إن ارتداء النقاب يعني الالتزام الكامل بسنة المصطفى عليه السلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لذلك فإن الارتداء يجب أن يكون عن قناعة وليس تقليداً لأحد ما أو عناداً بأحد آخر.

أما أنا، فقد قلت لفاطمة أنني أردت ارتداء النقاب منذ مدة طويلة، منذ أن رأيتها ترتديه عندما كانت طالبة في كلية الآداب، إلاّ أن كل من كان حولي كانوا يرفضون هذه الفكرة تحت ذرائع متعددة، أمي كانت تقول لي أنني ما زلت طفلة صغيرة، أما ليلى فقد كانت تقول لي أنني طفلة صغيرة على ارتداء الحجاب، فما بالك بارتداء النقاب!.. تلك الليلى التي جاءت من مخيم جنين وهي ترتدي منديلاً على رأسها

مثلها مثل غالبية فتيات المخيم، وغالبية فتيات فلسطين... ألقت المنديل منذ زواجها بأخي نجيب وأخذت ترتدي الملابس السافرة التي تكشف كل ما يحظر الدين الإسلامي كشفه.. لم يمنعها نجيب فقد تمكّنت من السيطرة عليه بسرعة مذهلة، ولم يتدخل والدي ولا والدتي، فقد حاولا في البداية إلاّ أن إصرار ليلى ونجيب جعلهما يتوقفان عن محاولة جعل ليلى ترتدي ملابس ملتزمة، وقد لحقت سميرة أخت ليلى بركب أختها في مطاردة الموضة بعد أن تجاوزت غضب أخي الأوسط إبراهيم بضغطٍ من نجيب وزوجته ليلى.

رفضت أن أرتدي أو أشتري الملابس الملوّنة في ذلك اليوم، رغم محاولة ليلى المستميتة، بل أنني قلت لها أنني سوف ألغي زواجي من أخيها إسماعيل إذا ما أصرّت على جعلي اشتري تلك الملابس، مما جعلها تصمت وتكفّ عن الإلحاح... لم يكن صمتها ضعفاً بل كان مكراً، وهذا ما أدركته فيما بعد.

في اليوم التالي، لم يكن هناك مفر من شراء الثوب الأبيض استعداداً ليوم الزفاف والعرس.. ذلك العرس الذي أعدت الترتيبات له لكي يتم هناك بعيداً عن عمّان، هناك في مخيم جنين.. كتب الله لي أن أتزوّج من إسماعيل.. ذلك الإنسان الذي لم أكن أعلم عنه سوى القليل القليل.. فأنا لم أره ولم أسمع منه سوى بضع كلمات عبر الهاتف.. كلمات فصمت طويل يتبعه بضع كلمات ليعود بعدها الصمت... كل ما كنت أعلمه عن ذلك الإسماعيل أنه إنسان متدين يخاف الله، هذا ما كان يقوله والدي قبل أن يتوفاه الله. أما أمي فقد كانت تقول أن إسماعيل يختلف اختلافاً كلياً عن باقي أخوته، وأنه أقرب ما يكون لأخي الطيب ناصر.. ولكن كيف يكون مثل ناصر الذي اختار من أحبها لكي تكون زوجته؟ كيف يكون مثل ناصر، وناصر رغم طيبته إلا أنه عنيد يرفض الظلم؟ رغم طيبته فهو صريح لدرجة الوقاحة، فهو محامي يردد دائماً ذلك القول أنه يجوز للمحامي ما يجوز للشاعر من كسر قواعد النحو بغية الوصول لكمال بيت الشعر، أما أنا فلم أكن أدرك ما كان يرمز إليه أخي ناصر من وراء قوله ذلك.

وذلك الذي اسمه إسماعيل، أيعقل أن يتزوّج فتاةً لم يرها، ولم يعرف طباعها؟

أم أن أمه قالت له أن ماجدة فتاة جميلة هادئة صامتة وكتومة؛ ولذلك وافق وقرّر خطبتي ثم الزواج بي... ولكن أمي لم تقل لي أن ذلك الإسماعيل شاب جميل هادئ وصامت وكتوم، بل قالت لي أنه شاب فلسطيني أحب فلسطين، ومن منّا لا يحب فلسطين! أجبتها.. فقالت لي أنه مسلم أحب الإسلام ونصره.. فأجبت أمي.. ومن منّا لا يحب الإسلام ولا يحب نصرته أيضاً!.

لم تقل أمي أنه جميل أو أنه حسن المظهر، أيعقل أن يكون قبيحاً سميناً وقصيراً أيضاً...!، من ذلك الإسماعيل الذي يبدأ مكالمته الهاتفية بكلمة السلام عليكم، ويتبعها بجملة غبية فيقول: كيف حالك يا أختاه... أتقول لي يا أختاه وأنا خطيبتك أيها الغبي.. وأنا سوف أصبح زوجتك بعد أيام أتقول لي يا أختاه!، ما أن أسمع منه تلك الكلمة حتى أقول أن ذلك الإسماعيل غبي، لا بل أنا الغبية الحمقاء التي وافقت على الارتباط به.

حتى أختي فاطمة عندما سألتها عن رأيها في خطبتي من إسماعيل، قالت لي أنها سمعت أنه شاب متدين ملتزم بتعاليم دينه، ولكنها طلبت مني أن أتروّى قليلاً ريثما تسأل زوجها عبيدة... فجاء عبيدة بجوابه لها أنه لو كان لديه أخت في سن الزواج لما تردّد في تزويجها من إسماعيل، بل أن عبيدة أضاف على ذلك أنه قال أن إسماعيل ملاك يمشي على الأرض.

ملاك يمشي على الأرض؟؟ يبدو أنني سوف أقتنع بهذه الجملة، وخاصة بعد أن أحضرت لي خالتي أم عوض هديةً من إسماعيل قبل أيام عندما جاءت لتصطحبني إلى فلسطين، بعد شراء حاجيات العرس وبعد انتهائي من تقديم امتحان الثانوية العامة.

ذلك الملاك أرسل لي هدية... كانت مغلقة بإحكام شديد، حتى أنني ظننت أن بداخلها شيئاً مهماً بنظري مثل باقة ورد مجفف يُخشى على أوراقه أن تتأثر بسبب بُعد المسافة من جنين إلى عمّان، أو باقة من أوراق الشعر والنثر المليء بكلام الحب، أو أن تلك الهدية تحتوي على أصباغ للماكياج... ما أن أزلت الغلاف الأول حتى وجدت جملة واحدة مكتوبة بطريقة جعلتني أضع الهدية جانباً وأقف

متجمدةً بلا حراك.. فلقد كتب ذلك الملاك إسماعيل بقلم أحمر كلمة.. احذر توضأ أولاً فهذا كتاب لا يمسّه إلا المطَّهرون.

لقد أهداني ذلك الإسماعيل قرآناً.. ألا يعلم أنني أمتلك واحداً لا يفارق حقيبتي أبداً، وامتلك آخرَ لا يفارق الطاولة التي بجوار سرير نومي، فأنا أقرأ القرآن كل ليلة حتى يهدأ بالي، ويهنأ نومي، وترتاح روحي بذكر كلام ربي.

أيرسل لي قرآناً من جنين وأنا التي كانت تحلم برسالة معطّرة ومزيّنة بالورود ومليئة بالكلمات الجميلة!!.. يبدو أن إسماعيل قد اختارني لأنني منقبة أو لأنني أحافظ على أداء عباداتي الدينية، أو لأنني ذهبت إلى الحج عندما كنت صغيرة مع والدي ووالدتي، أو لأنني ذهبت في العطلة المدرسية الماضية مع أمي وأخي ناصر وزوجته صباح لأداء العمرة.

جميل ذلك القرآن الهدية التي وصلتني من إسماعيل، لكني كنت رغم تديني الظاهر إلاّ أنني ما أزال سطحية غبية، وهذا ما علمته فيما بعد، وبمجرد أن فتحته وجدت بداخله قد كتب: «رفقاً بالقوارير».. عندها علمت أنني غبية متسرعة، فقد كانت إسماعيل يقصد من وراء إرساله لكتاب الله لي كهدية، ومن خلال ذكره على الصفحة الأولى بجملة «رفقاً بالقوارير» أن إسماعيل أراد أن يكون القرآن هو الفيصل بيننا، وأن تكون سنة سيدنا محمد عليه السلام هي منارة دربنا.

لقد أراد إسماعيل من هذه الهدية الطيبة أن يجعلني أشعر بالطمأنينة وعدم الخوف.. ذلك الخوف الذي كنت أحسه مع اقتراب موعد سفري إلى فلسطين، ما عاد له وجود، فأنا ذاهبة إلى خطيبي وزوجي الذي ردّد قول سيدنا محمد عليه السلام: رفقاً بالقوارير.. عند زوجي الذي إن جار علي سوف أجعله يحكم بشرع الله بيننا.. هدأ قلبي وما عدت محتاجة لا لوردة ولا لرسالة مليئة بكلمات الحب والغزل.

وعلى الرغم من كل ذلك، فأنا ما زلت لا أعلم السبب الذي جعل إسماعيل يرغب بالارتباط بي.. أيكون السبب تلك المتسلّطة أخته الكبرى ليلى؟ أم يكون السبب يعود إلى محبة خالتي أم عوض لي؟ فقد كنت دائماً أرحّب بها عندما تحضر لزيارتنا في عمّان وكنت أرافقها إلى المسجد لأداء صلاة التراويح في رمضان.

أيكون تديّني هو السبب وراء تلك المحبة؟، أم يكون ميراثي الذي سوف أرثه بسبب وفاة والدي هو السبب؟؟.. بالنسبة لخالتي أم عوض لا أظن أن المال هو السبب، فهي من ذلك النوع الذي ما زال يحافظ على بساطته رغم تقدم الزمن، فهي ما تزال ترتدي الثوب الفلسطيني التقليدي، رافضةً الحداثة وانتهاج الموضة.

وهي لم تطلب من والدتي أي طلب يدل على أنها مادية، بل على العكس، فقد كانت تحضر معها من فلسطين عندما كانت تأتي لزيارتنا الكثير من الهدايا مثل الزعتر البلدي الذي يتطلب قطفه السير مشياً على الأقدام ساعات وساعات في الجبال، وكانت تحضر لنا السماق البلدي والمريمية أيضاً والبابونج، كل تلك الأعشاب كانت تحتاج لمجهود بدني كبير كانت تقوم به خالتي حباً لنا ولوالدتي.

إذاً خالتي لم تكن تسعى وراء ميراثي، ولا أظن أيضاً أن إسماعيل المتدين الملتزم الذي أهداني القرآن الكريم يسعى هو الآخر وراء الميراث، ولكني أكاد أجزم أن تلك المتسلطة ليلى هي من كان يسعى وراء ميراثي ومالي، ولكن كيف لم أكن أعلم! وليس لدي فكرة عن الطريق الذي ترغب ليلى بسلوكه من أجل الوصول إلى مالي وميراثي، هذا ما كنت أقوله بيني وبين نفسي، وهذا أيضاً ما كتبته في دفتر مذكراتي بشكل رموزٍ لا يعلم معناها أحد بعد الله إلا أنا.

ولقد علمت أختي فاطمة معنى تلك الرموز عندما سألتني عنها، وقد قالت لي بعد أن شرحت لها معنى تلك الرمز أنها ما عادت تخشى علي، بل أنها تعتبرني قادرةً على مواجهة أي تحدٍّ ما دمت قادرة على معرفة مصدر هذا التحدي.

قالت فاطمة لي أنني ما عدت الطفلة المدللة بعد اليوم، بل أنني قد أصبحت فتاةً ناضجةً وواعيةً أيضاً. أعجبني كلام فاطمة التي ورغم أنها تكبرني بعدة أعوام، ورغم كونها أماً لثلاثة أطفال، إلاّ أنها تتعامل معي وكأنني توأمها، وعلى الرغم من أنها قد درست الأدب العربي إلاّ أنها لم تكن تستعمل تلك الكلمات المتفزلكة والمنمّقة، تلك الكلمات المأخوذة من طيات صفحات كتب الأدب العربي.

كان مطلوب مني أن أنتهي من شراء ملابس وحاجيات العرس خلال أيام، ولكني كنت بطيئةً جداً في انتقاء حاجياتي، فقد كان ذوق أمي وخالتي أم عوض

يعود إلى ما قبل مائة عام تقريباً، وكان ذوق ليلى يعود إلى ذوق بنات ونساء جهنم أكيداً، والعلم بذلك عند الله عزّ وجلَّ.

ولذلك، طلبت من أختي فاطمة أن تصطحبني لوحدها لكي أكمل شراء حاجياتي، فذوق فاطمة قريب إلى ذوقي الملتزم باللباس الشرعي الإسلامي.

ما أن بدأت بالخروج مع فاطمة، حتى كنت أعود كل يوم وأنا محملةٌ بالكثير من الحاجيات والملابس الخاصة بالمتنقبات والمحجبات، والتي تخلو من ملابس الكاسيات العاريات أمثال ليلى وأختها سميرة... حتى عندما اشترت لي فاطمة ملابس الزفاف الملوّنة والمزركشة، فقد كانت تلك الملابس لا تخدش الحياء أبداً، بل كانت ملابس تراعي حياء المسلمة الملتزمة.

أغاظت تلك الملابس والحاجيات ليلى كثيراً، وحاولت الاعتراض على الكثير منها، إلاَ أنني كنت أردّ عليها قائلةً: لكم دينكم ولي دين... فكانت تصمت لأنها كانت تعلم أنها قد تجاوزت كثيراً في ملابسها الكاشفة الفاضحة.

أما خالتي أم عوض وأمي، فقد كانتا مسرورتين وسعيدتين؛ لأنني كنت أشتري الملابس والحاجيات بغض النظر عن ذوق تلك الحاجيات والملابس، فمجرد كوني أنثى فهذا يعني لدى أمي ولدى أم عوض رضاي عن الزواج، وهذا ما كان يهم كلتيهما، فلا أظن أن هناك أمّاً لا ترغب بأن تكون ابنتها سعيدة قانعة بزوجها التي سوف تتزوجه، وكذلك أم عوض كانت تحاول إرضائي وإسعادي بأي شكل، فهي خالتي وهي أم العريس أيضاً، حتى أن ليلى كانت قد أصبحت تشعر بالتهميش بشكلٍ ملحوظ، فقد كنا نتبادل الضحكات عندما كنّا نتحدث أنا وأمي وأم عوض وأختي فاطمة. أما عندما كانت ليلى تتحدث، فقد كانت لا تجد لآرائها آذاناً صاغية مني ولا من الباقيات.

يوم غدٍ، سوف تقيم أمي حفلةً عائليةً يحضرها الأقارب وأفراد العائلة من أجل توديعي؛ ولذلك طلبت من أمي أن لا أطيل السهر في هذه الليلة، وأن أنام مبكراً استعداداً لحفلة الغد، واستعداداً للسفر بعد يوم الغد.

قبل أن أتوجّه إلى غرفتي لكي أنام، أحضرت خالتي صحناً وبدأت تصب بداخله

الماء، وتضع الحنّاء، فبدأت الرائحة الجميلة الطيبة تفوح في أرجاء المنزل، وقالت لي خالتي أنها سوف تقوم بوضع الحنّاء على يدي وقدمي يوم غدٍ أثناء حفلة الوداع، فهي تريد أن تحوّل تلك الحفلة لحفلة حنّاء أيضاً؛ لذلك فقد اشترت الشموع والورود استعداداً لتلك الحفلة.

عدت إلى غرفتي وبدأت تدوين ما حدث معي طوال الأيام السابقة، وما أن انتهيت حتى كانت صفحات دفتر مذكراتي قد انتهت، وما عادت هناك أوراق أدوّن عليها ما يجول بخاطري، وعندها أغلقت ذلك الدفتر الذي رافقني لعدة أعوام، ووضعته في جوف صندوق حاجياتي الخاصة، وأقفلت الصندوق ووضعته بداخل خزانة ملابسي، فقد وعدتني أمي أن تبقي غرفتي على حالها بعد زواجي، ووعدتني أن يبقى مفتاح الغرفة معي بعد سفري.

وداعاً أوراقي

يضيقُ صدري بغم عند حادثةٍ ... وربّما خير لي في الغمّ أحيانا
ورُب يوم يكونُ الغمّ أوّله ... وعند آخرهِ روحاً وريحانا
ما ضِقتُ ذرعاً بغمٍ عند نائبةٍ ... إلاّ ولي فرجٌ قد حلَّ أو حانا

صحيح أنه لم يعد هناك أوراق بيضاء في دفتر مذكراتي، ولذلك فقد كتبت هذه الأبيات التي لا أذكر اسم قائلها، لأنها تشبه ما حصل معي اليوم والأمس أيضاً، كتبتها على بضع أوراق، ودسست الأوراق بداخل دفتر المذكرات وأغلقته مودعةً غاضبة.

مودعةً عمّان ومتجهةً إلى فلسطين.. إلى جنين ومخيمها، وغاضبةً من تلك الغبية ليلى وأختها سميرة، فقد نكّدت علي تانك الغبيتان فرحتي في حفلة الوداع والحنّاء حينما دعتا إلى حفلتي صديقاتهما ليرقصن ويغنين على إيقاع صوت الموسيقى الماجنة المنحلّة، كيف يكون هناك غناء ورقص في حفلتي أنا تلك الفتاة الملتزمة بتعاليم دينها والمنقّبة لتحجب عنها ومنها الفتن؟!

في بداية الحفلة، كانت الأمور تسير بشكلٍ جيدٍ جداً، فقد كانت أمي وخالتي أم عوض تزغردان وتهللان، وكانتا أيضاً تقولان أبياتاً من الشعر النثري الذي يقال في أعراس فلسطين والأردن وبلاد الشام، ولكن سرعان ما بدّلت تلك الغبية الأجواء عندما أدارت جهاز الموسيقى ليصدح ويصم الآذان.

ما أن تعالت أصوات الغناء، حتى سارعت ليلى وأختها سميرة بتوسّط حلقة الرقص، وبدأتا بالرقص وهزّ الوسط، أما أنا فقد صممت أذنيّ لأن السماعات كانتا

بجوار الكرسي الذي كنت أجلس عليه، وصممتهما أكثر وأكثر لأنني كنت أكره الموسيقى كرهاً كبيراً، فأنا أحب الشعر.. أحب النثر.

في البداية، أغلقت أذنيّ، لكن ذلك لم يجدِ، فقررت أن آخذ زمام المبادرة، فما دامت الحفلة حفلتي، وما دمت أنا العروس فلتكن شروط العروس هي من تحكم الحفلة... أشرت بيدي إلى إبن أختي فهد، فحضر إلي مسرعاً فقلت له أن يعمل على إسكات الموسيقى وقطع أسلاك السماعات، هزّ رأسه فرحاً بما قلته، وأسرع نحو السماعات وقام بقطع الأسلاك التي تصلها بجهاز الموسيقى... في تلك الأثناء حلّ الصمت، فصاحت ليلى قائلةً: فلتشغل إحداكن جهاز الموسيقى، فحاولت سميرة أن تأخذ على عاتقها إعادة الموسيقى، إلاّ أنها فشلت وسرعان ما عرفت أنه لم يعد هناك مجالٌ لإعادة الصوت بعد أن رأت أن ابن أختي فاطمة فهد يمسك بيديه الأسلاك التي قام بقطعها. عندها حاولت سميرة أن تسأله عن سبب فعلته تلك، إلاّ أنه أشار لها بإصبعه نحوي، وقبل أن تصل إلي سميرة وتتبعها ليلى، وقفت وقلت: لا موسيقى ولا طبل ولا زمر، هذه حفلتي وفرحتي، وذلك يعني إما الأناشيد والزغاريد أو لا يكون هناك حفل وفرح.

تفاجأت كلتاهما مما قلت، وقبل أن تقول أي منهما كلمة، قالت أختي فاطمة إن كنتما تريدان الرقص والغناء، فاصعدا إلى بيتيكما، أما هنا في منزل الحاج أبي نجيب فلا مكان للرقص والغناء.. وفي تلك الأثناء أدركت أمي وأم عوض أن الوضع أصبح معقداً وصعباً، فليلى وسميرة هما أختا العريس، وهما أيضاً زوجتا أخويَّ الأكبرين «نجيب وإبراهيم»، أما أنا فقد كنت ما أزال بنظرهما طفلةً أو مراهقةً لا يحق لها أن تبدي رأيها أو تعترض على أي شيء، حتى لو كان ذلك الشيء يخص زفافي أو مبادئي ومعتقداتي الدينية.

لكن ما لم تكن ليلى تدركه، هو أنني لم أكن ضعيفةً أو انهزاميةً عديمة الرأي والشخصية.. فأنا عنيدة صريحة جداً لدرجة الوقاحة، إن تطلّب الأمر ذلك، ولذا فقد قالت والدتي لا زمر ولا رقص ولا غناء، فالعرس للعروس، ولذلك فليكن ما تحب العروس.. وهنا علا صوت أمي بالزغاريد، وعلت الأناشيد الجميلة من

فم أختي فاطمة وصديقاتها وصديقاتي... أما ليلى وسميرة فقد تركتا منزلنا وصعدتا إلى شقتيهما، إلاّ أنهما لم تصعدا لتواصلا الرقص والغناء، بل صعدتا لتفرغا غضبهما مني، من خلال صراخهما على أخي نجيب ومعاتبته، وكأن نجيب هو المسؤول عما حدث بيني وبينهما.

أما أنا فلقد كنت سعيدةً بتحقيق انتصاري الثاني عليهما، فالأول كان عندما اشتريت الملابس التي أحب مع فاطمة، والثاني اليوم عندما حلّت الأناشيد محلّ الطبل والزمر والغناء.

قبل أن تنتهي الحفلة، قامت أمي وأم عوض بوضع الحنّاء على كلتي يديَّ وقدميَّ أيضاً، وقامتا بلف يديَّ بقطعةٍ من القماش، فلم أعد استطيع استعمال أصابعي في الكتابة، وهذا كان سبب تأجيل الكتابة حتى الليلة... فالليلة هي ليلتي الأخيرة في عمّان، وغداً صباحاً سوف أنطلق مع أمي وأم عوض ومع ليلى وسميرة وأختي فاطمة إلى فلسطين؛ لكي يقام لي هناك حفل زفاف.

ولكني الليلة قرّرت أن أستعد جيداً للانتصار الثالث على ليلى، فبعد أن فكّ القماش عن يديّ واستطعت أن أكتب، فقد استطعت أيضاً أن أتصل بخطيبي إسماعيل؛ لكي أتحدّث معه عن ترتيبات الزفاف، وكانت هذه المرة الأولى التي أتحدّث معه عن تلك الترتيبات، فعندما كان يحدثني كنت أقول له: افعل ما تشاء.. أثث البيت كما تشاء...أعدَّ الحفلة كما تشاء.. أما اليوم، فقد شئت أنا ورغبت بأن يكون حفل الزفاف كما أريد وأرغب.

بدأتُ مكالمتي معه بشكل جدّي جداً، فقد قلت له السلام عليكم أخي إسماعيل.. غداً سوف نحضر إن شاء الله إلى فلسطين، وبعد غدٍ سيكون يوم زفافنا، ولذلك أريد أن يكون الزفاف بلا زمرٍ ولا طبلٍ ولا غناء... أريد الأناشيد أريد الزغاريد ولا شيء غير ذلك... حلّ الصمت بعد ما قلت لبضع ثوانٍ... ولم يقطع ذلك الصمت سوى كلمته لي: اسمعي يا أختي الطيبة، إن كان هناك فرقة أناشيد بعينها ترغبين بأن تنشد لنا يوم زفافنا، فأنا بإذن الله تعالى سوف أعمل على إحضارها رغم ضيق الوقت، أما إن لم يكن هناك فرقة محددة، فأنا متأكد

أن فرقة أناشيد أنوار القدس سوف تكون كما تحبين وتتمنين. أما بالنسبة للزغاريد فمن المؤكد أنّ أمَّكِ وأمي سوف تفيان بهذا الطلب، ولا تنسي أن هنا في جنين تعيش كلتا خالتيك أم خالد وأم أمين، ولذلك فسوف تعلو الزغاريد منهما أيضاً بإذن الله.

بعد ذلك، صمت إسماعيل قليلاً وكأنه يستجمع قواه، وقال: اعلمي يا أختاه أنني سعيد جداً بل فخور بما فعلتِهِ مع أختيّ ليلي وسميرة، واعلمي أيضاً أنني سوف أكون درعاً حامياً لكِ من أي أحد يحاول أن يعبث بمعتقداتكِ الدينية التي لولاها لما طلبت من أمي أن تطلب يدكِ لتكوني زوجةً لي على سنة الله عزّ وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم... هل تظنين أنني عندما أهديتكِ كتاب الله لم أكن أعلم أنكِ تحتفظين بنسخة منه بداخل حقيبتكِ وبنسخةٍ أخرى بجوار سرير نومكِ؟ وهل تظنين أنني سوف أسمح بأن يتحوّل عرسنا إلى مرتع للهو الشياطين؟.

أنتِ لا تعلمين من أنا.. أما أنا، فأعلم جيداً من أنتِ... غداً صباحاً سوف نلتقي بإذن الله تعالى، وإن كان هناك أي عقبة أو مشكلة فسوف أعمل على حلّها فوراً بعون الله، فلا تقلقي وتوكّلي على الله عزَّ وجلَّ.

عندها قلت له: إن شاء الله.. وأغلقت الهاتف، أغلقته بعد أن فتح كلام إسماعيل باباً للتساؤل والحيرة أيضاً.

أمضيت ما تبقى من وقت لدي في تلك الليلة في إعداد وتجهيز الحقائب بمساعدة أختي فاطمة التي قررت المبيت عندنا الليلة؛ لكي تسافر غداً معنا، وقد كان ابنها فهد أيضاً أعدّ نفسه لصحبتنا، رغم أن فهداً لم يكن قد تجاوز عامه الثامن بعد، إلاّ أنه مثل أبيه وأمه تماماً متديّن بشكلٍ ملحوظ، وما أن يعود من المدرسة حتى يخلع البنطال ويرتدي ثوبه الأبيض ويعتمر طاقيته البيضاء.

لذلك كان قطع أسلاك السماعات من قبله أمراً كان يود هو عمله، بدون أن أطلب منه ذلك، ولكنه لم يتجرأ على ذلك لصغر سنِّه، إلاّ أنه ما أن طلبت منه ذلك حتى قام به وبشكلٍ فوري.

ما أن عاودت عيناي قراءة السطور الماضية حتى رأيت أنني أكرر كلمة ذلك كثيراً، وأكرر كلمة غبي أيضاً عندما أصف إسماعيل، ولذلك قررت أن أقلّل من استخدام كلمة ذلك، وأن أتوقّف عن وصف إسماعيل بكلمة الغبي، لأنه يبدو ذكياً مطلعاً... ومتابعاً للأمور بشكل جيد.

نمت قليلاً بعد أن أكملت إعداد حقائبي، ولكن سرعان ما استيقظت على صوت أذان الفجر لأصلي الصبح وأودّع أوراقي هذه التي أكتب عليها، فما عاد لي وقتٌ للكتابة، وما عدت أستطيع أخذها معي، فأنا ما زلت أجهل المستقبل وما يخبأه لي، ولذلك فسوف أعاود تخبئة هذه الأوراق مع دفتر مذكراتي، لعلي أجدها إن عدت إلى عمّان مرةً أخرى.

سيكون أول ما أقرأه هو أبيات الشعر التي بدأت بها تلك الأوراق، فقد كانت بداية يومي صعبةً، إلاّ أن نهايته كانت ممتازة، لأن إسماعيل أعد لي ما كنت أتمنى من تجهيزات للعرس.

ولكن يجب أن لا أنسى تلك المتسلطة ليلى، فسوف ترافقني إلى فلسطين، وسوف تعمل على إفساد فرحتي أيضاً إن تمكّنت....

اليوم هو اليوم الأول في الشهر السابع من عام ألفين... 2000/7/1، واليوم أيضاً حصلت على دفترٍ جديد لأكتب عليه مذكراتي التي كنت قد توقّفت عن كتابتها منذ حوالي أسبوعين، عندما ودّعت عمّان وودعت معها دفتري القديم.

لكنني اليوم حائرة، فقد حدث الكثير الكثير خلال الأسبوعين الماضيين، بحيث أنني ما عدت أذكر كل ما حدث معي بشكلٍ مفصّل، فالأحداث كانت متسارعة ومتداخلة بعضها في بعض... لذلك فقد قرّرت أن أبدأ من البداية في سرد ما حدث معي خلال الأيام الماضية.. ولتكن تلك البداية عندما ودّعت أوراقي القديمة ووضعتها جانباً، فقد حضرت والدتي إلى غرفتي ما أن شعرت بأنني أكملت صلاتي، وجلست بجانبي محدثةً إياي بنصائح ما قبل الزواج، وما أن أكملت تلك النصائح حتى طلبت مني أن أذهب إلى شقة أخي نجيب بعد تناول طعام الإفطار؛ لكي أعتذر لتلك المتسلطة ليلى عما قلته لها أثناء حفلة الحنّاء والوداع.

ولقد ذكرت أمي أن ليلى وأختها سميرة غاضبتان مني كثيراً، وأنهما لن تسافرا إلى فلسطين لحضور حفل زفافي إن لم أعتذر لكلتيهما.

لم أود الاعتذار، وكنت سعيدةً عندما قالت أمي أنَّهما لا تريدان الحضور، إلاّ أنني ما كنت لأفسد على أمي سعادتها وفرحتها بعرسي، ولذلك فقد تناولتُ إفطاري وطرقت باب منزل أخي نجيب في الصباح الباكر، وما أن فتح الباب أحد أولاده حتى رأيت الحقائب معدّة وجاهزة بجوار الباب، فيبدو أن ليلى لم تكن تنوي عدم السفر، وإنما كانت تحاول أن تُظهر ذلك أمام والدتي.. فليس من المعقول أيضاً أن تضيّع ليلى على نفسها فرصة التباهي بما تلبسه من ذهب وملابس أمام أخواتها وقريباتها اللاتي كنّ ما يزلن يعشن في المخيم.

ولذلك، فما أن رأيت الحقائب معدة وجاهزة بجوار الباب، وما أن رأيت ابن أخي يلبس ملابس السفر الجديدة، حتى قلت له أنني أريد منه أن ينزل إلى شقة أمي لكي يساعدنا في حمل الحقائب ووضعها في سيارة والده الذي كان من المفترض أن يقوم بإيصالنا إلى الجسر الحدودي الذي يربط بين الأردن وفلسطين.

ما هي إلاّ دقائق حتى نزل ذلك الولد، ووضع حقائبي وحقائب أمي وأختي فاطمة وخالتي أم عوض. وما أن انتهى حتى بدأ بإحضار حقائق أمه ليلى وحقائب خالته سميرة أيضاً...

لم أعتذر، رغم أنني كنت أنوي الاعتذار إكراماً لأمي، ولكني أدركت أنني في موضع قوة وموضع حق. أما ليلى فلم تكن تملك أياً من ذلك، وأنها رغم تسلّطها الظاهر إلاّ أنها ضعيفة ومهزومة من الداخل، ومع ذلك ما كنت آمن جانبها أبداً.

ركبنا السيارة متجهين إلى الجسر الحدودي، ولولا أن والدتي وخالتي أم عوض كانتا تتحدثان طوال الوقت، لكان الصمت سيد المكان، فقد كانت ليلى على غير عادتها هي وسميرة صامتتين، ولقد كانت ملامحهما تدل على الغضب أيضاً. أما أنا فقد كنت سعيدةً ليس لأنني سوف أرى إسماعيل لأول مرة، بل لأنني تمكّنت ولأول مرة من أن أكون سبب غضب وعدم سرور ليلى وسميرة معاً.

كانت أمي هي الحزينة والغاضبة دائماً من تصرفاتهما ومن تماديهما على والدتي منذ وفاة أبي قبل أعوام، فأمي بطبعها طيبة متسامحة ومتساهلة أيضا، لم تكن تخبر أخي نجيب وإبراهيم بتصرفات زوجتيهما، فمن جانب كانت أمي تقول أن تلك المرأتين أُمَّا أحفادها، وهما أيضاً بنتا أختها، وكانت أمي دائماً تردد جملةً واحدة عندما تغضب من تصرفاتهما: آهٍ لو أنّ جرحي لم يكن بداخل كفّ يدي... وعندما كنت أسألها عن معنى ذلك، فكانت تقول إن كان الجرح بكفّ اليد، فإن اليد لا تعود قادرة على أداء مهامها لأنها مجروحة ومتألّمة.

كم كنت أتمنى لو أنني صعدت في سيارة أخي إبراهيم بدل سيارة أخي نجيب، فهناك تركب أختي فاطمة، ويركب معها أولادها وأولاد أخويَّ. أما هنا فيركب مع نجيب أمي وخالتي وليلى وسميرة وأنا، ولذلك فقد كان المكان ضيِّقاً مثل علبة السردين، فقد أصرّت سميرة على ترك سيارة زوجها لتكون بجوار أختها ليلى... ولكن لماذا التمني والحسرة، فأنا العروس ولذلك فقد طلبت من أخي نجيب بعد أن اجتاز نصف الطريق تقريباً أن يتوقف جانباً بسيارته؛ لأنني أريد النزول والصعود مع إبراهيم بسيارته لرغبتي بالتحدث مع فاطمة، فما كان من نجيب إلاّ أن استجاب لطلبي وخاصة بعد أن قالت له خالتي أم عوض توقّف جانباً استجابةً لرغبة عروستنا ماجدة...

ماجدة كان ذلك هو اسمي الذي أحب، والذي لم أكن أسمعه يتردد كثيراً على ألسنة من ينادونني، بل كنت أسمع اسم الدلع الذي لا أحب يتردد دائماً على لسان كل من كان ينادي علي وهو «جوجو»، ما علاقة جوجو باسم ماجدة، لم أكن أدري ما هي العلاقة بين الاسم واسم الدلع، إلاّ أنني أنادى بذلك الاسم منذ أن كنت طفلة صغيرة وحتى اليوم...

اليوم أيضاً سوف أترك ذلك الاسم الذي لا أحب خلفي بعد أن أجتاز الجسر عابرةً إلى فلسطين، إلى جنين وإلى مخيمها، أيعقل أن يكون هناك من تنادى جوجو في مخيم جنين؟، لا.. من المؤكد أن لا أسماء دلع لبنات المخيم وأولاده، ولا لبنات فلسطين وأبنائها، فهم أكثر جديّة ورصانة منّا نحن الذين نعيش خارج فلسطين،

وأكبر دليل على ذلك هو تحوّل ليلى ابنة المخيم، من ليلى إلى لولو رغم أن عمرها قارب الأربعين... إلاّ أنها تحب أن تنادى باسم لولو... لولو بين أزقة المخيم يصعب علي تخيل ذلك، بل أنه مدعاة للسخرية والضحك، أما لولو وهي تركب سيارة المرسيدس التي اشتراها والدي لأخي نجيب، فذلك اسم يدعو إلى التظاهر بأن صاحبته من ذواتِ الطبقة المخملية، ومن لابسات الحرير.

رحم الله أيام زمان، فقد أخبرتني أختي فاطمة أن ليلى عندما حضرت إلى عمّان مع والدتها أم عوض في نهاية أعوام السبعينات لكي تزف إلى أخي نجيب، كانت تضع ملابسها بداخل كيس مصنوع من القماش.. وأي قماش لم يكن قماشاً مخملياً أو قماشاً مصنوعاً من الحرير، بل كان قماشاً مصنوعاً من الكتان والقطن الذي يستعمل في صناعة أكياس الطحين التي كان يوزعها الصليب الأحمر على اللاجئين في فلسطين ومخيمات اللجوء.

فبعد أن أتت إلى عمَّان تحمل كيساً من أكياس الطحين، ها هي اليوم تعود إلى فلسطين ومخيمها وهي تحمل عدداً من الحقائب التي يساوي ثمن إحداها فارغة ثمن خمسين كيس طحين ممتلئ على الأقل.

فقد كانت ليلى مغرمة بكل شيءٍ يحمل اسماً عالمياً مشهوراً، على الرغم من أنها لم تكن تستطيع قراءة تلك الأسماء، وخاصةً أنها مكتوبة باللغة الإنجليزية التي لم تكن ليلى تحفظ منها سوى كلمتي: يس ونو.

فعلى الرغم من أن أخي نجيب طبيب، يجيد الإنجليزية والألمانية إضافةً للغة العربية، إلاّ أنه كان ما يزال أقرب ما يكون إلى والدي، فهو يتحدث بلهجة ولكنة فلسطينية واضحة جداً، رغم أنه لم يولد في فلسطين ولم يزرها أبداً، لأنه لم يكن يملك تصريحاً يسمح له بذلك، فسلطات الاحتلال الصهيوني ترفض منحه تصريحاً لزيارة فلسطين بحجة أنه كان ناشطاً سياسياً قبل عشرات الأعوام.

أما ليلى ابنة المخيم، فقد كانت تصر على تعليم أبنائها وبناتها اللهجة واللكنة المدنية، وكانت تعاقب كلّ من يتحدث من أبنائها باللهجة الفلسطينية التقليدية.. ومن الطبيعي أن تتبعها بذلك أختها سميرة التابع المخلص!.

نزلت من سيارة أخي نجيب، وصعدت إلى سيارة أخي إبراهيم، وما أن جلست بجوار فاطمة حتى قلت لها بصوتٍ خافتٍ جداً: أتتذكرين كيس الطحين الذي عبر الجسر في نهاية أعوام السبعينات؟ فضحكت وقالت: وكيف أنساه وبخاصة عندما شاهدت حقائب الليدي ليلى والليدي سميرة موضوعة بجوار حقيبتي المكتوب عليها رافقتكم السلامة، وهي الحقيبة التي ببضع دنانير عندما ذهبت مع زوجي عبيدة لأداء العمرة.

رافقتكم السلامة هي تلك العبارة المطبوعة على الحقائب الرخيصة التي يستخدمها العمال الوافدون أثناء سفرهم عائدون إلى بلدانهم.

بعد ذلك، رفعت فاطمة صوتها وقالت : والله إنَّكِ مجنونة يا ماجدة، أيكون سبب نزولك للصعود معنا هو هذا؟ أتذكِّرينني بكيس الطحين الذي أصبح حقيبة فأردتِ أن تحدثيني عنه يا أيتها المجنونة !.

لا، لا كيس الطحين ذاك تذكرته عندما كنت أسير متجهة نحوكِ لأركب في سيارة أخي إبراهيم. أما ما أردت محادثتكِ به فهو خوفي وإحساسي بأن ليلى وسميرة تعدّان لشيء ما؛ لكي تنتقمان مني على ما حدث يوم حفلة الوداع والحنّاء.

فانا لم اعتذر منهما كما طلبت امي رغم أَنني أَردت ذلك ارضاءً لها إلاّ أنني عندما شاهدت حقائب سفر الليدي ليلى جاهزة بجوار الباب، قرّرت ألا أعتذر.. كنت أتمنى لو أنني أستطيع رؤية ملامح وجه اختي فاطمة، إلاّ أن نقابها كان يحول بيني وبين رؤية تلك الملامح... ففاطمة كانت من ذلك النوع الذي يعبّر عما بداخله بشكلٍ فوري من خلال ملامح الوجه، وعلى الرغم أنه لم يكن يركب معنا أحد غريب في السيارة، إلاّ أن فاطمة كانت لا تخلع النقاب أبداً إلاّ بداخل منزلها أو بداخل منزل أمي، ولقد كنت أنا الأخرى أفعل ذلك مثلها تماماً.

إلا أنني كنت أود لو أنها ترفع النقاب قليلاً حتى أقرأ ملامح وجهها، فقد صمتت بعد أن عبّرت لها عن مخاوفي وقلقي من ليلى وسميرة... والصمت شيء يدل على الموافقة، كما يقال، ولذلك فقد قطعت صمت فاطمة، وقلت لها لا تقلقي فأظن أن الأمير الخجل إسماعيل معنا.. والأهم من ذلك أننا مع الله، ومن كان مع الله فلا يبالي أبدًا.

ضحكت فاطمة على الاسم الجديد الذي أطلقته على خطيبي إسماعيل، وضحك أيضا ابنها فهد، فقد كان يستمع إلى حديثنا على الرغم من أننا كنا نتهامس بصوتٍ يكاد لا يسمع.

أما أنا فأكملت الجملة نيابةً عنه، وقلت يتحوّل الأمير الضفدع إلى أميرٍ فارس بعد أن يرى نجوم الظهر من خالتك ماجدة.

اللقاء الأول

ما أن عبرنا الجسر الحدودي وأنهينا إجراءات التفتيش التي قام بها حرس الحدود الصهاينة، حتى وصلنا إلى الضفة الأخرى من نهر الأردن، ذلك النهر الذي يفصل بين الأردن وفلسطين، تخيلته نهراً مليئاً بالماء المتدفق، إلاّ أنه كان جافاً مليئاً بالبعوض، فقد استولت قوات الاحتلال الصهيوني على منابع النهر وحولتها إلى أنابيب خاصة مبعدة الماء عن النهر مجففة بذلك البحر الميت... مالئةً أحواض السباحة في المستوطنات الصهيونية.. ذلك المستوطن الذي يستهلك أكثر من 450 لتراً من الماء يومياً، في حين أن الفلسطيني يستهلك أقل من 50 لتراً من الماء في اليوم الواحد، هذا إن وجد الماء أصلاً! فغالباً ما تقطع المياه عن البلدات والقرى الفلسطينية لتصب هناك في مستوطنات الاحتلال.

كم أنا غبية أفكر بالبعوض والماء بعد أن عبرت الجسر، بدل أن أفكر بذلك الأمير الخجل الذي ينتظرني ما أن أخرج من هذا الباب... باب واحد هو ما كان يفصلني عن رؤية أميري الخجل، فخرجت منه بصحبة أختي فاطمة متابعةً خطى أمي وخالتي أم عوض، فوجدت أمام عينيَّ أميراً حنطي اللون ملتحياً، ولقد كانت هناك علامة تسمى الجومانة تزين جبينه دلالة على كثرة صلاته وسجوده لله تعالى.

قبّل ذلك الأمير يد أمي وقبّل يد أمه أيضاً، ولم يعد أمامه سواي أنا وفاطمة... فأشرت له بإصبع يدي نحو فاطمة مما جعله يعتقد أنها هي ماجدة خطيبته التي عقد عليها قرانه.. ماجدة زوجته على سنة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولذلك فقد مدّ إسماعيل يده مصافحاً أختي فاطمة... إلا أن فاطمة قالت له عذراً يا

ابن خالتي فأنا لا أصافح سوى محارمي.. أما أنت فتستطيع السلام على خطيبتك ماجدة، فهي التي تقف بجواري.

كان من الصعب بل من المستحيل أن يستطيع الأمير الخجل أن يميّز بيني وبين أختي فاطمة، فقد كانت كلتانا ترتديان ملابس سوداء متشابهة، وكنا نضع النقاب على وجهنا، ولقد كان طولي ومظهري العام شبيهاً بمظهر فاطمة لحد التطابق الكامل.

عند ذلك، نظر إسماعيل إليَّ نظرةً أدركت منها أنه غضب قليلاً من هذا المقلب الصغير الذي أوقعه بحرج أمام أختي فاطمة، فاسماعيل كان أيضاً لا يصافح النساء من غير محارمه لولا أنني كنت زوجته بشكل رسمي لما مدّ يده مصافحاً فاطمة ظانّاً إياها أنا.

لم يمد الأمير الخجل يده ليصافحني بل اتجه نحو فهد ونحو أبناء ليلى وسميرة ليساعدهم بنقل الحقائب إلى الحافلة التي كان قد استأجرها خصيصاً لنقلنا من مدينة أريحا إلى مدينة جنين ومخيمها.

ما أن انتهى من نقل الحقائب حتى ركبنا الباص، ولقد ركب هو بجوار السائق بعيداً عني، مما لم يمكنّني من التحدّث معه، ولو بكلمة واحدة، ولم أتمكن أيضاً من رؤية ملامح وجهه، مما جعلني أتساءل إن كان ما يزال غاضباً مني بسبب ذلك المقلب الصغير.

ليس المقلب هو الصغير بل عقلي أنا هو الصغير، فلم يكن يجدر بي أن أمازحه هكذا وخاصة أنني لا أعرف طباعه بعد.

ولكن هل كان ذنبي أم ذنبه أننا لم نتمكن من اللقاء والحديث قبل أن نعقد قراننا ونتزوج، أم أن الذنب يعود لذلك الاحتلال الصهيوني البغيض الذي حرمني من رؤية خطيبي لأنه ممنوع من مغادرة فلسطين، لأنه كان أسيراً في سجون ذلك الاحتلال البغيض، لقد علمت أن إسماعيل سجن لمدة عامين عندما كان عمره ستة عشر عاماً، سُجن لأنه ألقى زجاجة حارقة على إحدى دوريات العدو التي اقتحمت المخيم في تلك الفترة، وعلمت أيضاً أن إسماعيل قد أكمل دراسته الثانوية بداخل

الأسر، وما أن كسر القيد وتحرّر حتى التحق بكلية التمريض ليصبح ممرضاً، فلم تكن علاماته المدرسية تسمح له بدراسة الطب، مما جعله يقبل بكلية التمريض محاولاً تحقيق بعض ما كان يحلم به.

فلو تمكّن إسماعيل من الحضور إلى عمّان للتعرف علي، لكان أدرك أنني طيبة ولم أقصد من وراء تلك المزحة سوى كسر جدار الجليد الذي يفصل بيننا.. لقد أصبح الأمير الخجل، أميراً غاضباً وأصبحت أنا بنظره فتاةً غبيةً ساذجة.

ما أن انطلقت الحافلة حتى تم إيقافنا على أحد الحواجز العسكرية الموجودة على مدخل ومخرج مدينة أريحا، وهناك رأيت بأم عيني كم أن ذلك الاحتلال الصهيوني قذر وقاتل للفرحة ومفرِّقٌ للأحبة.

فقد تم إنزالنا من الحافلة، وبعد ذلك طلب جنود حرس الحدود الصهاينة من إسماعيل إعطاءهم بطاقة هويته، وما أن فحصوا بيانات بطاقة هويته من خلال جهاز الحاسوب حتى طلبوا منه أن يمد يديه، وقاموا بتكبيله واقتادوه بعيداً عنا، أما نحن قد فشلت كل محاولاتنا لمنع حدوث ذلك، وكان ثمن تلك المحاولات أن عاث جنود حرس الحدود الصهاينة فساداً وتخريباً بأمتعتنا، وما أن انتهوا من ذلك حتى أدركنا أن إسماعيل الأمير الغاضب قد أصبح أميراً مكبلاً وسجيناً، أما نحن فقد قالت لنا خالتي أم عوض لا تقلقوا سوف يطلق سراحه بعد عدة ساعات، فما حدث مع إسماعيل هو عمل روتيني تعوّد إسماعيل عليه، وتعودت أنا أيضاً عليه، ولذلك يحسن بكِ أنتِ أيضاً يا ماجدة أن تتعودي عليه، فزوجكِ القادم هو ناشط في إحدى التنظيمات المقاومة ذات النهج الإسلامي الذي يؤمن بالمقاومة سبيلاً وحيداً لتحرير فلسطين.

رغم أن خطيبكِ ينكر ذلك، إلاّ أنني أقسم أنه ينتمي لذلك التنظيم، وقد انتمى إليه عندما كان في الأسر قبل أعوام طويلة، كانت خالتي أم عوض تقول ذلك الكلام همساً بأذني، وكأنه سر حربي خطيرٍ... خطير هو إذاً ذلك الأمير الخجل.

بعد ذلك، انطلقت الحافلة بدون ذلك الأمير الخطير... الأمير المقاوم، وعلى الرغم من أن الليدي ليلى والليدي سميرة كانتا غاضبتين جداً، ولا أدري أكان

غضبهما يعود لاعتقال أخيهما الأصغر إسماعيل، أم يعود لتناثر ملابسهما خارج حقائبهما الثمينة، مما جعل التراب يلطخ بعضها.

وأكاد أجزم أن الغضب كان على الملابس لا على إسماعيل، فيبدو أن الملابس الثمينة أهم من ضفدعي المقاوم!

أما أمي، فقد كانت تدعو الله تعالى أن يفك قيد إسماعيل حتى لا يتحوّل العرس إلى حزن، ولقد شاركتها أختي فاطمة الدعاء والتذرع لله تعالى... أما أنا فقد بكيت بصمت وبدموعٍ حارقة بللت نقابي وأوجعت عينيَّ... لم أتوقف عن بكائي إلاّ عندما سمعت صوت الزغاريد يتعالى من فم خالتي أم عوض، فعلى الرغم من أن إسماعيل ابنها الأصغر والمدلل حكما لأنه آخر العنقود قد اعتقل وقيّد، إلاّ أنها تزغرد فرحاً بقدومي لفلسطين، وفرحاً باقتراب موعد عرسي على ابنها.

كنت قد رأيت الفلسطينيات يزغردن وهنّ يودّعن أبناءهن شهداءً، ويزغردن مودعات أبناءهن جنوداً مقاومين ضد الاحتلال الصهيوني البغيض.. إلاّ أنني أول مرة أرى بها أمّاً تزغرد مودعةً ابنها أسيراً ومتقبلةً ابنة أختها عروساً.. عروساً بلا عريس.. بل بلا ضفدع مقاوم غاضب من خطيبته على مزحتها الصغيرة البريئة.

زغاريد خالتي أوقفت دموع عينيَّ، وأراحت قلبي، وطمأنت روحي أيضاً، فيبدو أن الزغاريد لها مفعول سحري عظيم في تحويل مشاعر الحزن والخوف إلى مشاعر فرح وطمأنينة أيضاً.. زغردت خالتي أم عوض وزغردت أمي أيضاً بصوت عالٍ وقوي، مما جعل خوف الأطفال أبناء أخي نجيب وأخي إبراهيم وأبناء أختي فاطمة يتبدّد ويختفي أيضاً، فلم يكن أولئك الأطفال معتادين على ما حدث من أولئك الصهاينة الحاقدين، فلقد ولدوا وترعرعوا في عمان في ظل الأمن والأمان، لا بظل الخوف والحرمان وبظل جبروت الاحتلال.

بدأ فهد الصغير ينشد أناشيد إسلامية مقاومة قاطعةً بصوته الطفولي الجميل صوت الزغاريد محولاً حافلة الحرس إلى حافلة للمقاومة والتحدي.

في تلك الأثناء، كانت الليدي ليلى تصيح على فهد لكي يكفّ عن الإنشاء من أجل أن تتحدث عبر جهاز الهاتف النقال الذي كان بحوزتها مع أخيها عوض، فعوض

هذا هو أقرب أخوتها لها، وهو أيضاً حلقة الوصل بينها وبين باقي أقربائها في مخيم جنين، ولقد رأيته عدة مرات عندما كان يحضر إلى عمّان بصحبة والدته، إلاّ أنني لم أكن أرتاح له أبداً، حتى أنه لم يحضر يوم وفاة والدي لانشغاله كما قالت خالتي بإدارة شؤون المصنع ومعصرة الزيتون.

وفي ذلك اليوم، كتبت في دفتر مذكراتي أن ذلك العوض شخص انتهازي وصولي.. ومتسلّق أيضاً، فبعد أن كان يطارد والدي كأنه ظله، أصبح مشغولاً عن حضور جنازة أبي مشغولاً بإدارة ماله... بل أصبح شغولاً بنهب مال أبي وهو القول الأصح.

وصلتِ الحافلة بعد عدة ساعات إلى جنين، بعد أن تم توقيفنا على عدة حواجز على امتداد الطريق.. وما أن وصلنا إلى مخيم جنين حتى كان خبر اعتقال إسماعيل قد وصل قبلنا من خلال الليدي ليلى، وتلاه خبرٌ أهم كان من إسماعيل نفسه يفيد أنه قد تم إطلاق سراحه وأنه في طريقه إلى جنين.

سعدت جداً بذلك الخبر المفرح، ولكن سرعان ما تلاشت تلك الفرحة عندما دخلت منزل خالتي أم عوض في مخيم جنين، فهو منزل متهالك ومتداعٍ، بل أنه آيل للسقوط أيضاً، فقد تم بناء هذا المنزل في عام 1948، عندما لجأت عائلة جدي من مدينة يافا جرّاء جرائم عصابات الاحتلال بعد انسحاب قوات الانتداب البريطاني، تلك القوات التي أعطى وزير خارجيتها المجرم بلفور وعداً للصهاينة بأن تقام لهم دولة على أرض فلسطين.

لقد أعطى ذلك المجرم ما لا يملك لمن لا يستحقون، ولقد كان سبباً في وضع فلسطين بقبضة الصهاينة، وبتهجيرنا نحن الفلسطينيين في المنافى وبمخيمات اللجوء والشتات.

لقد مثّل لي ذلك المنزل المتهالك قمة الظلم والبشاعة التي تعرّض لها أهلي وأهل فلسطين كافة.

مكثت بذلك المنزل أنا وأمي وفاطمة وأطفالها، مكثنا مع خالتي أم عوض، التي لم تتوقف عن الترحيب بنا بكافة الوسائل الممكنة، أما الليدي ليلى والليدي سميرة

فقد كان عوض بانتظارهما بسيارته، ولقد اصطحبهما إلى منزله، وهو منزل كبير يقع بإحدى ضواحي مدينة جنين.

منزل كبير كلّف بناؤه مالاً كثيراً، أجزم أنه نهب من أموال مصنع ومعصرة الزيتون التي كان يديرها عوض نيابةً عن إخوتي ونيابةً عن ورثة أبي.

قبل أن يحلّ المساء، كان أميري المقاوم قد وصل إلى بيت خالتي أم عوض، وصل ومعه صينية كبيرة مليئة بالكنافة النابلسية الرائعة، فقد ذهب إلى نابلس قبل أن يعود إلى مخيم جنين ليحضر الكنافة إكراماً لنا.

طلبت مني خالتي أن أحضر الأطباق والشوك من المطبخ، حيث كنت أقف هناك أتحدث مع فاطمة، فعدت لها حاملةً الأطباق كاشفة عن وجهي بعد أن كنت قد نزعت عني النقاب، فلم يكن بداخل المنزل سوى نحن النساء.

رأى الأمير الغضبان وجهي للمرة الأولى بحياته، فابتسم بعد أن قلت له أنا خطيبتك ماجدة واتبعت قولي ذلك بأن قلت له: الحمد لله على سلامتك.

نظر إلي محدقاً لبرهة قصيرة، وقال: تبارك الله فيما خلق.. وبعدها وضع هو صينية الكنافة ووضعت أنا الأطباق، فبدأت خالتي بتقطيع الكنافة وتوزيعها على الأطباق. أما إسماعيل فقد سألني إن كان هناك ما أحتاج إليه قبل موعد الزفاف، وأخبرني بأنَّه أكمل تجهيز بيته بشكلٍ كامل.

لقد كان البيت الذي يقصده هو أحد منازل المخيم، فقد قام إسماعيل بشراء أحد تلك المنازل وقام بإعادة ترميمه وصيانته، ولقد تمكّن إسماعيل من تحويله إلى منزل صالح للسكن، ولقد وضع بداخله أثاثاً متميزاً وجميلاً أيضاً.

ولقد كان ذلك المنزل لا يبعد سوى عدة دقائق من منزل خالتي أم عوض.. فقد اصطحبني إسماعيل لوضع حقائبي بداخل منزلنا، ولقد حضرت معنا أمي وفاطمة وفهد أيضاً. ما ميّز المنزل كان أن غالبية جدرانه قد علّق عليها براويز تحمل بداخلها آيات كريمة من القرآن الكريم.

أمّا لونه من الداخل فكان مميزاً أيضاً، فقد كان اللون الأخضر واللون الفيروزي المذهب هو اللون الطاغي على الأثاث وجدران المنزل أيضاً. بعد أن وضعت حقائب

ملابسي جانباً وهي فارغة من الملابس التي أصبحت تملأ علاقات الخزائن، سألني أميري الضفدع إن كان هناك ما ينقصني، وأرغب بشرائه أو بفعله، وعلّل تكرار سؤاله على أنه سوف يكون مشغولاً جداً يوم غد.

فقلت: لا ينقصني سوى دفتر من تلك الدفاتر المخصصة لكتابة المذكرات، ولا ينقصني أيضاً سوى قبولي في كلية الصحافة والإعلام في إحدى الجامعات القريبة.

لم تفاجأني كلمات إسماعيل بل أن كل ما فعله هو أن قال لي: إن شاء الله تعالى سوف يكون لكِ ما أردتِ.

وبعد ذلك، عدنا إلى بيت خالتي أم عوض، حيث كان البيت مكتظّاً بالضيوف وبالمهنئين والمباركين.

وعلى الرغم من كثرة الموجودين، إلا أنني كنت أفكر بكلمة إسماعيل التي قالها: «سوف يكون لكِ ما أردتِ إن شاء الله تعالى»، فلم يكن لتلك الجملة سوى معنىً واحد، هو أن إسماعيل سوف يقوم بتسجيلي في إحدى الجامعات.. وهذا موضوع لم يسبق لنا التحدّث به قبل اليوم.

يبدو أن أميري الحبيب قد أصبح مثل مصباح علاء الدين، ذلك المصباح الذي يحقّق أماني صاحبه بمجرد أن يطلبها من الجني الذي يسكن بداخله.

يبدو أنني غير قادرة على تحديد ملامح شخصية إسماعيل حتى الآن، رغم مرور عدة ساعات على لقائي به، إلاّ أنني أجزم أن هناك حزناً عميقاً يسكن قلبه، فقد رأيت ذلك في عينيه.

انقضت تلك الليلة الأولى لي في مخيم جنين، وأنا ما أزال حائرة، وعلى الرغم من أنني استيقظت صباحاً على صوت ابن أختي فهد ينادي عليَّ، وقد حمل بين يديه كيساً قد أحضره من إسماعيل، وكان الكيس بداخله ستة دفاتر متنوعة وملوّنة من تلك الدفاتر المخصصة لكتابة المذكرات.

أعطاني فهد الكيس المليء بالدفاتر وقال لي أن إسماعيل يسلم عليكِ ويقول لكِ أنه يأمل أن تعجبكِ الدفاتر. وأما بالنسبة لكلية الصحافة والإعلام، فإنه يقول أنه بمجرد ظهور نتيجة امتحانات الثانوية العامة بعد ثلاثة أسابيع سوف يقوم

بتسجيلك في كلية الصحافة والإعلام بجامعة المدينة على الفور، إن كان المجموع مناسباً... المجموع مناسبٌ أي مجموع علاماتي في امتحانات الثانوية العامة... لم أكن قلقة من هذه الناحية، بل كنت واثقةً من أن مجموع علاماتي أكبر من المطلوب بكثير، فأنا كنت طالبةً مجتهدةً جداً.

أما ما أقلقني، فهو ذلك الأمير المصباح... سوف أتوقف عن وصفه بالأمير، وسوف أعطيه لقباً للدلع، وسوف يكون اللقب هو سوسو.. إسماعيل سوسو.. لا، لا أظن أن ذلك اللقب سوف يتناسب مع شخصية إسماعيل أبداً، لذلك سوف أقول زوج الست ماجدة.. لا أظن أن هذا اللقب يناسبه بتاتاً، فهو شخص قوي الشخصية ويفترض احترامه على كل ما يقابله هذا ما قالته لي أختي فاطمة.

لم يكن أمامي سوى فهد، فسألته ما رأيك يا فهد بالاسم المناسب لعمّك إسماعيل، فأجاب فهد على الفور إن أصدقاءه في المخيم ينادونه بلقب أبو النور.. أبو النور، ذلك كان لقب إسماعيل، لقب جميل جداً على أية حال، فإن اسم نور يصلح اسما لابننا أو ابنتنا إذا ما رزقنا الله تعالى بأحد منهما.

كم أنا غبية وسطحية، أفكر بأشياء غير ذات معنى، على الرغم أنه لا يفصلني عن حفلة زفافي سوى بضع ساعات لا أكثر.. لا لست غبية ولا سطحية، فأنا تائهة، وخائفة نوعاً ما، لذلك أحاول الهروب من الواقع ومن التفكير بحفلة زفافي من خلال تلك الأفكار الساذجة.. أما أنا فلست ساذجة أبداً، فأنا قد أصبحت أدرك أنني سوف أكون بين يدي إسماعيل، وهو إنسان قد أصبحت الآن أرتاح لمجرد ذكر اسمه.

أما ما كنت أخشاه، فقد كان تلك الليدي ليلى، إلاّ أنها حتى الآن لم تكن قد اصطنعت أي مشكلة بعد، ولكني لا أعتقد أنها لن تفتعل المشاكل، فهي متسلطة مغرورة لا تستسلم بسهولة.

ولذلك طلبت من فهد الصغير أن يبقى قريباً مني ليكون حلقة وصلٍ بيني وبين إسماعيل... لكن سرعان ما أصبحت بغنى عن فهد، فقد أرسل لي إسماعيل هاتفاً نقالاً مع فهد الصغير، وأرفقه بورقة كتب عليها أن هذا الهاتف هو هدية بسيطة، وأنه يأمل أن يكون الهاتف وسيلة تواصل، فالتواصل يعني التقارب، ويعني أيضاً

معالجة المشاكل، وهي ما تزال صغيرة، لأن الصغير إن ترك سوف يكبر، وعندها سوف يصعب معالجة وحل عقده، ولقد وقّع الورقة بلقبه «أبو النور».

في عام 2000 لم تكن الهواتف النقالة منتشرة بشكل كبير، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الليدي ليلى تمتلك واحداً، وكذلك الليدي سميرة، أما أنا وأختي فاطمة فلم نكن أصلاً بحاجة لهاتفٍ نقال، ولذلك لم نكن قد اشتريناه.

مضت الساعات بسرعة، ولبست فستاني الأبيض، ووضعت فاطمة على كتفي العباءة والنقاب، وأجلستني في وسط فناء منزل خالتي أم عوض، فأنا لم أذهب لصالون التجميل وإنما تركت هذه المهمة لفاطمة، ولقد قامت به على أحسن وجه.

أثناء الحفلة، كانت تعلو من خارج المنزل أصوات الأناشيد الإسلامية، حيث كانت الغرفة تنشد هناك، حيث يجلس الرجال ويجلس أبو النور أيضاً في خيمة أعدّت أمام المنزل لتكون مكان استقبال المهنئين.

طلبت من خالتي أن أرفع نقابي لكي ترى النساء وجهي، وفعلاً فعلت بعد أن أكدت لي أنه لا يوجد بالمكان أي رجل غريب أو حتى قريب، فلقد كان البيت وفنائه مكتظّاً بنساء وبنات المخيم اللواتي كنّ يلبسن أجمل الملابس والأثواب الفلسطينية التراثية الرائعة، إلاّ أنه لم يكن بين الحاضرات سوى واحدة أو اثنتين من اللواتي يرتدين النقاب، أما غالبية الفتيات والنساء فلقد كنّ يرتدين الحجاب، ذلك كان طبيعياً ومقبولاً، أما الغير طبيعي والغير مقبول، فقد كان ما ترتديه الليدي ليلى والليدي سميرة، فقد كانتا ترتديان ملابس كنت أخجل أنا الفتاة من النظر إليهما، وهما كاسيتان عاريتان، حتى أنهما قد ذهبتا إلى أحد الصالونات في مدينة جنين، وعادتا من هناك مع أخيهما عوض. أما الغريب فقد كانت زوجته إيمان ترتدي النقاب وترتدي القفازات السوداء في يديها، مما جعلتني وبشكل فوري ارتاح لها، ولقد زاد ذلك الارتياح بمجرد أن حدثتني قائلةً فلتكن صلاة ركعتين شكراً لله تعالى بداية خلوتكِ بزوجكِ، فإسماعيل طيب نقي طاهر، ولذلك أنا متأكدة أنه بإذن الله تعالى سوف يكون زواجكِ مباركاً وسعيداً.

أما الليدي ليلى والليدي سميرة، فكانتا تتجولان بين فتيات ونساء المخيم عارضتان سلاسل الذهب اللتان كانتا ترتدياناها، بالإضافة لكمّ كبير من الأسوار والخواتم الذهبية، لقد كانتا مثل محلٍ متنقل للمجوهرات والمصوغات الذهبية، بل كانتا دميتين تافهتين تتمايلان وسط فتيات ونساء مخيم جنين اللواتي كنّ أكثر عزةّ بالنفس، وأكثر كرامةً، رغم ضيق ذات اليد ورغم الفقر الذي فرض عليهنَّ بعد أن هُجّرن من قراهن في فلسطين أثناء حرب عام 1948.

لقد كنت وأنا جالسة على ذلك الكرسي المرتفع وسط باحة المنزل، أنظر إلى الفتيات والنساء وأقول أن بينهنَّ من هنّ أجمل مني ألف مرة، فلماذا لم يختر إسماعيل إحداهن؟ لماذا اختارني أنا؟.. ما الذي يميزني عنهنَّ؟.. لا شيء وعلى العكس، هنا بنات المخيم، بنات فلسطين أقدر مني بكثير على رعاية زوج عرف الأسر، وهو ما يزال فتىً صغيراً.. زوج متدين غير متطلب.

أعتقد أن كل الفتيات اللواتي جلسن قبلي على كرسي الزواج قد فكرن بما أفكر أنا به، وهو ببساطة لماذا أنا التي تجلس عروساً وليس إحدى الجميلات اللواتي يملأن المكان؟؟ إنها القسمة والنصيب، وإنه أمر من كان أمره بين الكاف والنون.

أعتقد أن العروس تصاب بالطرش أثناء حفل الزفاف، فأنا قد أصبت بالطرش أيضاً، فلم أعد أسمع الأصوات، وتدريجياً لم أعد أتصور الوجوه، فقد كنت أحلّق بأفكاري بعيداً لعلي أتمكن من الفرار من الحاضر وصولاً إلى المستقبل، إلاّ أنني ما كنت أحلّق قليلاً حتى أعود ثانيةً إلى الكرسي، ويعود معي سمعي ونظري، فأرى الليدي ليلى فأضحك لسخافتها، وأسمع صوت زغاريد أمي فأسعد لفرحتها، فأمي منذ أن توفّى الله والدي لم تحضر أي عرس ولم تزغرد لسنوات طويلة جداً.

وها هي اليوم فرحة بأن تمكنت كما تقول من تزويجي قبل أن يأخذ الله أمانته... وأظن أن ذلك هو الدافع وراء موافقة أمي على زواجي، فقد كانت تستشعر قرب موعد موتها... آهٍ من تلك الأفكار الغبية التي تملأ رأسي، أفكر أن أمي سوف تموت، ولذلك أرادت تزويجي.. إلاّ أن أمي وبحمد الله تعالى بصحة ممتازة، ولا

تشكو من أي مرض، أما أنا فيبدو أنني قد أصبت بالعته والهبل أي لم يبقَ بيني وبين الجنون سوى درجة واحدة فقط لا غير.

لو أن إسماعيل يستطيع قراءة أفكاري الغبية تلك، لقام بوضعي بمشفى المجانين بدل وضعي داخل بيته. لقد قاربت الحفلة على الانتهاء، فما عدت أسمع صوت فرقة المنشدين، ولقد تعبت أمي وخالتي من كثرة ما زغردتا ووزعتا الحلويات والعصائر على المدعوين والمهنئين.. أما أنا فأشعر بالنعاس الشديد، ولا شيء سوى النعاس ما أتمنى أن أحصل عليه الآن.

صباح الخير

صباح الخير.. قالها لي وهو يوقظني كي أقوم لأتوضأ استعداداً لصلاة الفجر... فقمت وتوضأت ثم صلّيت ركعتي سنة صلاة الفجر، وبعد ذلك وقفت خلفه لكي يؤم بي، فصلى بي الفجر، وبعد ذلك جلسنا كي نتحدث فبدأ إسماعيل يقص علي قصته.. كانت قصةً متداخلة ومتشابكة محزنة ومفرحة في آن واحد، ولقد كانت قصته تستحق أن تكتب في صفحات العز والفخار، إلاّ أنه ما أن انتهى من قصها علي، حتى قال لي إياكِ أن تكتبي حرفاً واحداً مما سمعته مني في دفتر مذكراتك.. فدفتر مذكراتك قد يكون عرضةً هو الآخر للاعتقال، وقد يكون ما تكتبيه بداخله طرف خيط يقود أعداء المقاومة لكشف أسراري، ولذلك احذري من أن تكتبي عني أي شيء قد تسمعينه بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر، لا تكتبي أن فلاناً زارنا في وقت متأخر وكانت تفوح منه رائحة البارود.. لا تكتبي أنني قد تركت المنزل قبل صلاة الفجر وعدت مضرجاً بالدماء لأنني كنت أضمّد جراح مقاوم ما.

لا تكتبي عن أي تصرّف ترينه غريباً غير مفهوم، والأهم هو أن لا تسأليني أين كنت أو أين أنت ذاهب... فأنتِ تعلمين أنني لست بكاذب، ولذلك أرجو منكِ يا ماجدة أن تتعودي على هذا النوع من الحياة.

أكتبي في دفتر مذكراتكِ عن كل شيء، وعن أي شيء، طالما أن ذلك الشيء لا يمت لي بصلة، أعلم أن ذلك أمر صعب، فقد أصبح كلانا مرتبط المصير أحده بالآخر، وأعلم أنكِ سوف ترين أموراً تحتاج منكِ أن تبوحي بها لأوراق مذكراتك، ولكن اعلمي أن البيوت أسرار، وبما أننا تحت الاحتلال الصهيوني فإن بيوتنا وأبوابها قابلة للمداهمة والاقتحام، وعندها سوف يقرأ كل سر تكوني قد كتبته من

قبل أولئك المحتلين البرابرة.. حبيبتي اعلمي أن الكتمان هو أحد أهم شروط نجاح الزواج والتجارة والمقاومة أيضاً، فاكتمي أسرارنا حتى عن حبر قلمكِ وورق دفتركِ.. حتى عن نفسكِ فلا تحديثها عما يشغل فكركِ.

أعلم أن ذلك صعب، ولكن الأصعب أن أزج بالأسر أعواماً طويلةً بسبب أفكار دارت بذهنكِ، فحوّلها قلم حبركِ إلى حبل لمشنقةٍ أعدّت لي... حبيبتي أكرر ما سبق وأقول ما قاله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: «استعينوا على قضاء حاجاتكم بالكتمان».. الكتمان، لا شيء سوى الكتمان بعد التوكّل على الله تعالى طبعاً.

أكتمي أسرار بيتنا عن أمي وعن أمكِ أيضاً، اكتمي تلك الأسرار عن أي فتاة أو امرأة تدخل منزلنا أو تكون صديقتكِ، فإن كان علينا الحذر من عدونا مرةً، فإنه من الواجب علينا الحذر من أصدقائنا ألف مرة، وخاصة أولئك الأصدقاء الذين يظهرون بشكل مفاجئ، سواء أعند وقوع الأزمات والمحن أم عند تعالي صوت الزغاريد والأفراح، فالخطر الذي أحدثكِ هذه المرة قد يأتي من أولئك الذين يقومون بدور وكلاء الاحتلال الصهيوني، والذين يقومون نيابةً عنه بجمع المعلومات وتسليمها إياه على طبق من ذهب لينالوا رضاه عنهم، وهنا أعني تحديداً يا زوجتي الحبيبة أشباه الرجال الذي باعوا الدين والوطن عندما انتموا إلى جهازي الأمن الوقائي والمخابرات العامة، فعناصر وضباط كلا الجهازين لا يسعون إلاّ لشيء واحد ووحيد وهو القضاء على المقاومة الإسلامية والقضاء على كل من يقاوم الاحتلال.

هل تعلمين يا حبيبتي أنني قد سجنت عند قوات الاحتلال داخل سجونها نحو عامين، ولكني سجنت في سجون سلطة أوسلو ثلاثة أعوام ونصف... هل تعلمين يا زوجتي أنه تم اعتقال ثمانية من أصدقائي يوم أمس من قبل أجهزة أمن السلطة، ليس لأنهم لصوص أو مجرمون، ولكن لأنهم علّقوا أعلاماً خضراء كتب عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهي أعلام تدل على المقاومة الإسلامية.. حماس.

هل تعلمين أن الفرقة الإسلامية التي أنشدت في حفل زفافنا ليلة أمس قد أوقفوا بعد الحفل، وتم إبلاغهم أنهم ممنوعون من العودة إلى المخيم مرةً أخرى،

وممنوعون من إنشاد الأناشيد الإسلامية.. وبالمناسبة فقد تمّت مصادرة أجهزتهم التي استعملوها أثناء إنشادهم.

نحن في المخيم نقع تحت مطرقة الاحتلال الصهيوني، وسندان أجهزة أمن سلطة أوسلو، ولذلك احذري من النساء اللواتي سوف يقمن بزيارتكِ، واحذري من أسئلتهن التي قد تحتوي على أفخاخ ومصائد، وهنا يا زوجتي الحبيبة لا أعني كل النساء طبعاً، وإنما أعني فئة محددة جداً، وهي الفئة التي سوف ترشدكِ عنها أمي، فأمي ابنة مخيم جنين المقاوم، وهي أيضاً خبيرة بمعادن النساء والرجال أيضاً.

لأول مرة في حياتي لم أكن شاردة الذهن والفكر عندما يحدثني أحد، فقد كانت كل حواسي موجودة وحاضرة، وكنت أستمع إلى كل حرف وكلمة وكل جملة، وكنت أرى معالم وجهه وتعابيرها، أرى حركة يديه وهو يتحدث... لقد أسرني بكلامه رغم أن ذلك الكلام لم يكن عن الحب أو العشق الذي تحب أي فتاة أن تستمع إليه من قبل زوجها، فقد كان إسماعيل يتحدث عن حبّ من نوع آخر لم أكن قد اهتديت له، وهو حب الله تعالى وإرضائه من خلال مقاومة الاحتلال ودحر العدوان، ذلك الحب هو الرابط القوي الذي يشدني إليه حديث إسماعيل.. فماذا تتمنى الفتاة أن يكون زوجها محباً للمال وجمعه وتخزينه، أو يكون زوجاً محباً لمتع الدنيا الزائلة.. لا والله فأنا كفتاة مسلمة ملتزمة بفرائض الدين لم أكن أتمنى سوى الارتباط والزواج بمثل هذا النوع من الرجال.. الرجال الذين باعوا الدنيا ابتغاء مرضاة الله تعالى.. الرجال الذين قرروا السير في درب المقاومة والتحدي رغم أن الدرب مليء بالأشواك. ما أن انتهى إسماعيل من حديثه حتى صمت قليلاً وعاود الحديث مرةً أخرى قائلاً: أما بخصوص الجامعة فلا تقلقي فبإذن الله تعالى سوف يكون لكِ ما تتمنين وترغبين.

بعد ذلك أمسك يدي ونظر مباشرةً بعيني وقال: إن كان هناك أي طلب أو حاجة أو أمنية لك، فإن كل المطلوب منك سوف يكون شيئاً واحداً، وهو أن تأمري وأنا سوف أعمل بعون الله على تنفيذ أوامركِ، فأنتِ زوجتي وأنتِ أمانة في عنقي.

في تلك الأثناء، كانت الشمس بدأت تداعب نوافذ منزلنا، فقام إسماعيل ليصلي صلاة الضحى، وقال لي الأفضل لكِ أن تصلي أنتِ أيضاً الآن، لأنه من المؤكد أنكِ لن تجدي الوقت فيما بعد لأداء صلاة الضحى، فأمي وأمك قادمتان بعد قليل، ومن المؤكد أنهما تحملان معهما الإفطار، وبعد الإفطار الغداء، ثم العشاء، وبين ذلك كله الضيوف والمهنّئون.. صباح الخير يا ماجدة.. صباح الخير يا وجه الخير.

ما أن صلى وصليت، حتى كانت خالتي أم عوض قد وصلت وبدأت بطرق الباب، وبالطبع كانت أمي أيضاً معها، أما فاطمة فقد رفضت اصطحابهما، وقالت لهما إن الوقت ما يزال مبكراً على إزعاج العرسان... لم تكن فاطمة تدري أنني استيقظت اليوم مثلما استيقظ كل يوم، أي قبل صلاة الفجر.

فتحت الباب لأمي ولخالتي، فأخذت أمي تقبلني وتبعتها بذلك خالتي، وقد سلمتا على إسماعيل.. ما أن انتهينا من السلامات حتى قال إسماعيل: خير إن شاء الله شو جايبكن بدري؟ يبدو أنكما قد نسيتما شيئاً هنا في بيتي يوم أمس عندما حضرتما معنا بعد العرس.. أما يبدو أنكما نسيتما أننا عروسين.. لا أظن أنكما نسيتما حجة مجيئكما وهي الإفطار.. أين الإفطار يا أمي؟ أين الإفطار يا خالتي؟ أولا تتحجج الحماوات عادةً بالإفطار لتحضران مبكرتين إلى منزل العرسان، أولستن حماوات؟ إذاً أين الإفطار؟... لقد جعل حديث إسماعيل إلى والدته ووالدتي محرجتين جداً، فبدل أن أكون أنا وإسماعيل في حالة إحراج، حالنا كحال سائر المتزوجين الجدد، كانت الحموات هن المحرجات هذه المرة.

تركتهما مع إسماعيل الذي لم يكن قد توقّف عن الكلام، واتجهت نحو المطبخ لأعدّ الشاي والإفطار، إلاّ أنني لم أجد بذلك المطبخ سوى الرفوف الفارغة. أما الثلاجة فلم تكن تحتوي سوى على بعض قوارير الماء.. فلا شاي ولا إفطار.. عندها ناديت على إسماعيل، وقلت له لقد أعانك الله على أن تجهز المنزل على أكمل وجه، إلا أنك نسيت شيئاً واحداً، ولذلك أنا متأكدة أنك ورثت عادةً النسيان هذه من أمك ومن خالتك، فلا طعام عندنا لهما، ولا طعام عندهما لنا.

ضحك إسماعيل وضحكت، وذهب بعد ذلك لارتداء ملابسه استعداداً للذهاب للسوق لشراء الطعام وحاجيات المنزل، إلاّ أنه وقبل أن يغادر المنزل كان الباب يدق مرةً أخرى هذه المرة، كان فهد ومعه أمه فاطمة، وكان كلاهما يحملان صواني مغطاة، وما أن وضعاها بعد أن فتحت لهما باب المنزل حتى كشفت خالتي عما بداخل تلك الصواني، فإذا به الإفطار مرفقاً به الشاي والعصير أيضاً.

لقد أنقذ حضور فاطمة الموقف بشكل كامل، فقد أرسل إسماعيل فهداً لإحضار الحاجيات بعد أن تناولنا إفطارنا معاً... وبعد الإفطار كنت أتوقع أن تسألني أمي بعض الأسئلة المحرجة إلاّ أنها لم تفعل بشكل مباشر، ولا بشكل موارب، بل أن الحديث اقتصر طوال فترة الصباح عما حدث ليلة أمس أثناء حفلة العرس، حديث فررت منه بحديث آخر أجريته مع فاطمة، فقد طلبت من فاطمة أن تجعل زوجها عبيدة يتابع موضوع أوراق شهادة الثانوية العامة الخاصة بي، ولقد سرّت فاطمة كثيراً عندما علمت أنني سوف أكمل دراستي في كلية الصحافة والإعلام.

أما أنا فما عدت أدري إن كنت مسرورةً بخصوص موضوع الجامعة أو لا، فيبدو أنني لم أكن أظن أن الأمور سوف تسير بسرعة بهذا الموضوع.

يبدو أنني كنت أتوقع المصائب، إلا أنني لم أجد أياً منها حتى الآن، فكل الأمور تسير على أحسن حال، حتى الليدي ليلى والليدي سميرة فقد حضرتا ظهراً وهما تحملان الغداء الذي أعدته إيمان زوجة عوض، حضرتا وتناولتا الطعام معنا بدون أن تثيرا أية مشكلة وحتى بدون أي تعليق لاذع من تلك التعليقات التي كانت الليدي ليلى تلقي بها عادةً في أي مجلس تحضره، حتى أنها اليوم كانت على غير عادتها كانت صامتة شاردة الفكر غائبة الذهن.

بعد ذلك، ترك إسماعيل المنزل بمجرد أن بدأت النساء بالتوافد إلى منزلي، نعم إلى منزلي ليقدّمن لي التهاني والتبريكات.. كنت أستقبلهن مرحبةً بهن، فنساء مخيم جنين وبناته طيبات حنونات يحببن المشاركة في الأفراح، ولقد شعرت بالألفة سريعاً على عكس ما كنت أشعر به هناك في عمّان.

فعلى الرغم من أننا نسكن في العمارة التي بناها لنا والدنا في إحدى ضواحي

عمان، إلاّ أنني لم اكن أعرف من هم جيراني في العمارة المجاورة أو المقابلة لعمارتنا.. هناك كل إنسان يعيش ويحيا بشكل فردي بعيداً ومبتعداً عن الآخرين، كانت تلك هي الحياة في ضواحي عمّان الراقية، أما هنا في قلب مخيم جنين، فإن الألفة سيدة الموقف بلا منازع.

هذه اسمها تالا، أما اسم أمها فهو زريفة، وتلك ربحية واسم ابنتها صفاء.. قفزة كبيرة ما بين أسماء الأمهات هنا في مخيم جنين وما بين أسماء البنات، فالأسماء القديمة ذات معانٍ مفهومة وواضحة مثل اسمي أنا ماجدة اسم من الطراز القديم إلاّ أنه جميل وواضح المعنى.

كم كنت أود أن عمري يقفز مرة واحدة عشرة أعوام بحيث يصبح عمري بدل ثمانية عشر عاماً ثمانية وعشرين عاماً، وما أن يقفز تلك القفزة حتى يتوقف عن الحركة لمدة عشر أعوام أخرى فبهذه الطريقة سوف أكون قد اجتزت أصعب مراحل الحياة دفعةً واحدة، فلا أعود مراهقةً ساذجةً متسرعة، وأنهي دراستي الجامعية بلا أوجاع الرأس التي تخلفها الدراسة، ويصبح عندي عدة أطفال دفعة واحدة، فأرتاح من مرحلة طفولتهم المزعجة المليئة بسهر الليالي، وتغيير حافظات الأطفال وإعداد قناني الحليب ليلاً ونهاراً... آهٍ لو تمر هذه الأعوام العشرة بسرعة البرق لأرتاح على الأقل من أفكاري الساذجة.

اليوم يصادف الأسبوع الثاني على زواجي، وها أنا أكتب مذكراتي وأذكر بها أموراً عديدة مما كان يجدر بي ذكرها، مثل كلمة ضفدع التي أطلقتها على إسماعيل أو حتى الكتمان الذي أرادني إسماعيل أن أتبعه بأن أكون كاتمةً لأسراره.

لا لدفاتر المذكرات بعد اليوم، لا للحبر ولا للورق، سوف أمزق دفتري الجديد هذا، بل سوف أحرقه لأطمئن أن يصبح حبر قلمي وأوراق كتاب إلى رماد.

سوف يكون صدري هو كاتم أسراري وأسرار زوجي، هذا هو حديثي الأول مع نفسي بعد أن حرقت دفتر مذكراتي، فمن اليوم الأول وصاعداً سوف أدير أحاديثي داخل رأسي بعيداً عن الأوراق والأقلام فأصبحت ذكريات بلا حبر وورق، ولكن عن أي ذكريات أتحدث؟... أأتحدث عن ذكريات الأسبوعين الماضيين،

لا أظن.. فلم يكن بهما سوى المهنئات والمهنئين، أم أتحدث عن تلك الذكريات التي لم أرها بعد والتي أظنها سوف تكون مهمةً مليئةً بالأحداث، فأنا زوجة ممرض مقاوم، مقاوم مُتابَع من قبل أجهزة أمن السلطة، ومطبق عليه من قبل قوات الاحتلال.. مقاوم أظن أنه يخفي الكثير الكثير خلف معالم وجهه الهادئ الصامت وخلف عيناه الحزينتان.

كنت معتادةً على كتابة ذكرياتي مرةً واحدةً كل أسبوع أو أسبوعين، أما الآن فعلي أن أتعوّد على الاكتفاء بذكر تلك الذكريات بصمتٍ وبعيداً عن الحبر والورق، ذلك الشيء صعب لكنه ليس مستحيلاً، فما علي سوى أن أغيّر من عاداتي القديمة لأبدأ بعادات جديدة.

وأول تلك العادات هو التعوّد على فراق أمي وأختي فاطمة، فبعد مرور نحو شهر على وصولنا لفلسطين حان موعد عودتهما إلى عمّان، أما السبب فلا يعود لاستعجال أمي أو فاطمة على العودة، بل يعود لأن الليدي ليلى والليدي سميرة قد ملّتا من المكوث في جنين، وترغبان بالعودة إلى عمّان حيث الحرية في السهر والتنقل، حيث أرادت الليدي ليلى أن تبدأ الجزء الثاني من عطلة نهاية العام الدراسة بالسفر للتسوق في مجمعات دبي التجارية. فهذه عادة تحرص عليها ليلى منذ عدة أعوام، أما سميرة فقد أرادت العودة لكي تسافر مع أخي إبراهيم إلى تركيا لقضاء بضع أسابيع.

اضطرت أمي وفاطمة لتوديعي مبكراً والعودة إلى عمّان، وبقيت أنا وحيدةً في منزلي بمخيم جنين، لم تكن خالتي أم عوض تطيل الغيبة عني بل كانتا تزورني وأزورها، ولكن سرعان ما انخرطت بحياتي الجديدة.

وصلت أوراق علاماتي من عمان بعد أن قام عبيدة زوج أختي فاطمة بتصديق تلك الأوراق من قبل وزارة التربية والتعليم، ومن قبل وزارة الخارجية أيضاً، فوصلت الأوراق جاهزة، ما كان على إسماعيل سوى تقديمها للجامعة، وسرعان ما فعل، وسرعان ما تم قبولي في كلية الصحافة والإعلام.

بدأت الدراسة الشهر التاسع من عام 2000 ولقد كان إسماعيل يقوم بإيصالي

للجامعة صباح كل يوم قبل أن يتوجّه إلى المستشفى، حيث كان يعمل، أما أنا فسرعان ما اندمجت مع الطالبات اللواتي يدرسن معي وبخاصة بنات الكتلة الإسلامية، فقد اعتبرنني واحدةً منهن، لا أدري تحديداً سبب ذلك، فربما يكون نقابي هو السبب أو التزامي الديني هو السبب، وقد يكون السبب عائد إلى كون زوجي إسماعيل.

لقد تعرّضت لبعض المضايقات من قبل بعض الطالبات والطلبة الذين أرادوا في بداية أيام التحاقي في الجامعة أن يجعلوني أنضم إلى الفصائل التي ينتمون إليها، إلا أنني كنت جافةً في حديثي معهم، فلا يعقل أن أدعى للانضمام لمنظمة التحرير التي اعترفت بدولة العدو الصهيوني، وأزالت من ميثاقها الكفاح المسلح.

منظمة أنشأت أصلاً لتحرير الأراضي التي احتلت بعد عام 1948، فإذ بها تنقلب على نفسها متنازلةً عن تلك الأراضي.. راضيةً من خلال سلطة وهمية على بعض التجمعات داخل الأراضي التي احتلت عقب حرب 1967.

تلك أمور لم أكن أهتم بمعرفتها أو الاطلاع عليها، إلا أن زواجي من إسماعيل قد جعلني أهتم بدراسة التاريخ ومعرفة المزيد من القضية الفلسطينية.

صحيح أنني ولدت خارج فلسطين وعشت في كنف والدي ووالدتي حياةً منعمة، إلاّ أنني لا أنكر أصلي وأصل والدي، فنحن لاجئون شئنا أو أبينا، وها أنا اليوم أحيا وأعيش في مخيم جنين، وهو مخيم أقيم للذين هجّروا من قراهم ومدنهم، مخيم يحمل كل ساكنيه مفاتيح بيوتهم التي هجروا منها ويحملون أوراقهم التي تثبت ذلك، ويحملون بداخل صدورهم ألم ومرارة اللجوء والحرمان.. أنا زوجة إسماعيل الذي اعتقل على يد قوات الاحتلال الصهيوني مرةً، واعتقل على يد سلطة أوسلو سلطة منظمة التحرير مرةً أخرى، فأمضى ثلاثة أعوام وأكثر عند سلطة أوسلو، وأمضى عامين عند سلطة الاحتلال.. لقد كانت كلتا السلطتين بالنسبة لي سواء، فلا فرق بينهما إلاّ بالاسم، أما الفعل فهو واحد.

ما زالت أكياس الطحين توزّع من قبل هيئة شؤون اللاجئين في المخيم اليوم، مثلما كانت توزع في عام 1948 عندما هجّر أهلي وأجدادي.

ولذلك، فقد كنت متعطشةً لمعرفة المزيد عن خفايا الصراع الدائم هنا في فلسطين، وهنا في مخيم جنين أيضاً، ويبدو أن دراستي في كلية الصحافة والإعلام سوف تكون إحدى وسائلي لمعرفة المزيد.... ولكشف الخفايا.

وداعاً طفلتي.. ووداعاً مؤمن

اليوم يوم الأفراح.. لا ورب الكعبة، اليوم يوم الأتراح.. نعم الأتراح وليس الأفراح، فاليوم هو يوم الخميس الموافق الثامن والعشرين من شهر سبتمبر (أيلول) من عام 2000، وهذا يعني لي الفرح القصير جداً والترح الطويل... الطويل، فقد فرحت قليلاً في صباح اليوم عندما أبلغتني الطبيبة النسائية أنني حامل، وزادت فرحتي بأن قالت لي أنني حامل بطفلة جميلة.

ولكن ما هي إلا ساعات حتى حل الترح والدمار والخراب، فقد قام جزار صبرا وشاتيلاً آريل شارون بتدنيس باحات المسجد الأقصى المبارك، وما أن فعلها ذلك الإرهابي الجزار حتى هبّ شعب فلسطين عن بكرة أبيه مدافعاً عن معراج سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، هبّ الشعب وهبت جنين ومخيمها الباسل.

سعيدةً كنت، فأصبحت غاضبة حانقة على فعلة ذلك النجس الذي دنّس قدسي المباركة.

في ذلك اليوم، خرجت متظاهرة لأول مرة مع المتظاهرين والمحتجين من طلاب وطالبات الجامعة، سرنا وهتفنا وألقينا الحجارة على قوات الاحتلال التي انتشرت بكثافة وبشكل سريع مغلقةً الطرقات ومقيمة الحواجز. ما أن حلّ المساء حتى وجدت نفسي أعود سيراً على الأقدام مع عددٍ من الطالبات إلى مخيم جنين.. إلى بيوتنا، عدت مرهقةً متعبة بعد أن فرغت جزءً من الغضب الذي كان يملأ صدري.

عدت ولم أجد إسماعيل زوجي، فقد كان في المستشفى يضمد الجراح ويسعف المصابين ويساعد الأطباء، منذ ذلك اليوم لم يعد إسماعيل إلى المنزل إلا لتغيير ملابسه أو للاطمئنان علي وعلى والدته التي أصبحت تقيم في منزلنا بشكل

دائم،لأن إسماعيل كان مشغولاً في المستشفى، فقد كان كل يوم يسقط المئات من الجرحى والعشرات من الشهداء برصاص قوات الاحتلال.

أغلقت الجامعة لأيام ولأسابيع عديدة، فما عاد الطلبة يرغبون بالتعلّم، بل أن كل ما كانوا يسعون إليه هو التحرر وكسر قيد الاحتلال، لم تكن مدينة فلسطينية أو قرية تخلو من التظاهر والمتظاهرين، فقد كان الغضب سيّد الموقف وكانت الحجارة السلاح الذي جابه به المنتفضون جنود العدو المحتل.

أما أنا، فقد كنت أشاهد ما يحدث عبر شاشة التلفاز، ودموعي لا تتوقف عن إيلام عيني، أما صراخي ونحيبي فقد كتمته داخل صدري، لم أجد فرصة لأخبر خالتي أم عوض أنني حامل، ولم أخبر إسماعيل أيضاً، فقد كانت الدماء تملأ الشوارع والأزقة، ولذلك فقد كتمت فرحتي حتى أنني بعد أسبوعين من انطلاق انتفاضة الأقصى نسيت أصلاً أنني كنت حاملاً.

مع مرور الأيام، زادت شراسة قوات الاحتلال، فزاد معها عدد المصابين وعدد الشهداء... الشهداء الذين كان لمخيم جنين نصيب كبير منهم، ولقد كان أحد أولئك الشهداء ابن خالتي أم أمين.. مؤمن كان طفلاً لم تتجاوز أعوام عمره التسع، استشهد وهو عائد من المدرسة برصاص قوات جيش الاحتلال الصهيوني... استشهد لأنه ألقى حجراً على مجنزرة تقف بجوار دبابة.. ألقى حجره الصغير فألقوا عليه وابلاً من الرصاص فحولوا جسده لمرمى رصاص فاستشهد مؤمن.

كان مؤمن أول شهيد أراه بعيني وبشكل مباشر، فقد تم إحضار جثمان الشهيد الطفل مؤمن من المستشفى، وكان معه عندما حضر زوجي إسماعيل، كانت عيناي تنظران إلى جسد الشهيد المضرج بالدماء وإلى ثوب زوجي الذي كان لونه أبيض فتحوّل إلى لون الدم.. إلى اللون الأحمر، كانت دماء مؤمن تملأ ملابس إسماعيل.. أما دموع إسماعيل ودموعي ودموع أمه وخالتي ودموع سائر من كانوا هناك كانت تنهمر من عيوننا وصولاً إلى جسد الطفل الشهيد مؤمن، كانت النساء يبكين ويزغردن في آنٍ واحد، حتى أنا كنت أبكي وأبكي لكنني لم أستطع أن أزغرد، فيبدو أن هذا الفعل يحتاج قوةً كبيرةً من الصبر والتحدي حتى تتجرأ النساء على فعله.

لقد كانت الزغاريد التي كنت أسمعها تتشابه بالصوت مع تلك الزغاريد التي سمعتها يوم زفافي، إلا أنها كانت تختلف وبشكل كامل من ناحية المعنى.

كم كانت خالتي أم أمين قويةً وجبارة أيضاً، عندما كانت تقبل ابنها الشهيد مؤمن وتوصيه بأن يوصل سلامها إلى خير الخلق سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، كانت خالتي أم أمين تتحدث مع ابنها المسجى أمامها قائلةً: حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله بك يا شارون وحسبي الله بكل من خان دم الشهداء.

أما خالتي أم عوض، فقد نقلها زوجي إسماعيل إلى المستشفى بعد أن أغمي عليها بسبب جلطة قلبية أصابتها، فقد كانت خالتي أم عوض تحب مؤمناً حباً كبيراً، فذلك الطفل الصغير كان هو من يرافقها إذا ما أرادت الذهاب إلى السوق أو زيارة أحد ما من أقاربنا وأصدقائنا في المخيم. أما خالتي أم خالد فقد كانت أكثر خالاتي تماسكاً وجلداً فهي أم لشهيد.. شهيد قد استشهد قبل أعوام طويلة في الانتفاضة الأولى، انتفاضة أطفال الحجارة، إلاّ أن ابنها الشهيد لم يكنً طفلاً بل كان رجلاً متزوجاً وكان له عدد من الأطفال الذين كانت أعمارهم قريبة من عمري أنا الآن.

ما أن أسعف إسماعيل والدته ونقلها للمستشفى حتى كانت جنازة الطفل الشهيد مؤمن على وشك الانطلاق... حيث تم حمل الشهيد ليصلّى عليه في المسجد بعد صلاة العصر، ثم إعادته مرة أخرى لكي يودع منزله ولكي تودعه أمه وداعها الأخير.

بعد ذلك حمل الشهيد مرة أخرى فوق الأكتاف وهو ما يزال مضرجاً بدمائه ملفوفاً بعلم فلسطين وبراية التوحيد الخضراء التي كتب عليها.. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

في تلك الجنازة خرج المخيم عن بكرة أبيه مودعاً الطفل الشهيد، فقد كانت تلك عادة أهل مخيم جنين منذ أن أصبح هناك شيء اسمه مخيم جنين... فالتكافل والتعاضد سمة من سمات أهل ذلك المخيم الحزين، لم أتمكن من متابعة رؤية الشهيد، فقد حمل بعيداً عني، حمل وسط موجٍ من المشيعين.

كنت أسمع الهتافات المطالبة بالانتقام من المحتل الجبان، هتافات التكبير وهتافات التوعد بالثأر من العدو.. سجي جسد الطفل الشهيد مؤمن في قبر بجوار قبر ابن خالته أم خالد، بجوار قبر ابنها خالد دفن مؤمن.. ما أن دفن جثمان الشهيد حتى عادت النساء والرجال إلى منزل خالتي أم أمين حيث رأيت أنا شبان المخيم قد أقاموا وبسرعة مذهلة خيمةً كبيرةً وضخمة أمام المنزل حتى تكون مكاناً ملائماً لاستقبال المهنئين.

نعم المهنئين.. فنحن في فلسطين المحتلة إذا ما استشهد لنا شهيد، نزغرد رغم أن الدموع تملأ عيوننا، ونتقبَّل التهاني باستشهاد أحبتنا رغم أن الحزن يحرق قلوبنا.

ما أن وصلت إلى منزل خالتي أم أمين حتى جلست بين النساء حاملةً بيدي القرآن الكريم.. كنت أقرأ الآيات القرآنية وكنت أبكي حزناً على ذلك الطفل الذي قدر له الله أن يصبح شهيداً، كنت أقرأ الآيات القرآنية على روح الشهيد، تلك الروح التي أقسم أنها روحٌ طاهرة مباركة، فهي روح طير من طيور الجنة بإذن الله تعالى... وكنت أدعو الله أن يشفي خالتي أم عوض، فقد كنت قلقة كثيراً عليها، فأنا لم أكن أعلم أنها قد أصيبت بجلطة قلبية وكل ما كنت أعلمه هو أنها قد أغمي عليها فقرر إسماعيل نقلها للمستشفى من باب الاحتياط.

أما الحقيقة، فقد كانت مخبئة بصدر زوجي إسماعيل الذي لم يرغب بجعلنا نزداد حزناً على حزن... ظللت على هذا الحال حتى ما بعد منتصف الليل، إلا أنني لم أستطع الانتظار أكثر فطلبت من إيمان زوجة عوض أن تجعل زوجها يوصلنا سوياً إلى المستشفى عند إسماعيل من أجل رؤية خالتي أم عوض... وصلنا المستشفى بعد الساعة الواحدة ليلاً وهناك فقط علمت ما قد حلّ بخالتي فقررت المكوث عندها وبجوارها وبجوار زوجي إسماعيل.

أما إسماعيل، فقد كان حائراً حزيناً وكانت عيناه تقدح شرراً. ما أن جلست بجوار والدته حتى أبلغني أنه يرغب في الذهاب إلى قبر الشهيد الطفل لكي يقرأ هناك القرآن على روحه الطاهرة. وقبل أن أسأله عن السبب قال لي أنه لم يتمكن من حضور الجنازة ولم يصلِّ مع المصلين على جثمان الشهيد، لأنه كان هنا مع والدته

التي تم إجراء عملية قسطرة لقلبها، ولذلك لم يشأ زوجي أن يطلع عليه الصبح قبل أن يودع الشهيد.... ودَّعني وتوجه بصحبة أخيه عوض وزوجته إيمان اللذين أوصلاه إلى المقبرة... إلى مقبرة الشهداء. أما أنا فقد بقيت بجوار خالتي التي كانت غائبة عن الوعي، وكانت الاسلاك والمجسات موصولة بجسدها.. صليت لله تعالى عدة ركعات ودعوته بأن يشفي خالتي وبأن يغفر للطفل الشهيد مؤمن.

بعد ذلك، شعرت بالراحة لكوني هنا بجوار خالتي ولكون زوجي هناك بجوار قبر الشهيد... قبر الطفل، فذلك الطفل كان بحاجة لمن يكون بجواره في ليلته الأولى التي يمضيها جسده الطاهر داخل القبر، صحيح أن روحه صعدت إلى ربها في السماء، إلاّ أن الجسد ما يزال هنا وحيداً.. لا لم يعد وحيداً فزوجي إسماعيل هناك، بل أن خالتي أم أمين هناك أيضاً مع زوجها وأبنائها، فقد حضروا إلى القبر بعد أن خلت دارهم من المهنئين من أهل المخيم، ولم يبقَ بها سوى أقاربنا الذين أرادوا النوم عند خالتي ليواسوها ويشدوا من أزرها.

أما خالتي وزوجها أبو أمين، فقد أرادوا قضاء ليلتهم بجوار قبر طفلهم الشهيد.. طفلهم مؤمن، فما أن وصلوا هناك حتى وجدوا زوجي إسماعيل يجلس واضعاً المصحف بين يديه ويقرأ بصوتٍ حنون وعذب الآيات القرآنية الواحدة تلو الأخرى... جلسوا بجوار القبر حتى سمعوا المؤذن ينادي: الله أكبر.. الله أكبر، معلناً موعد صلاة الفجر.. طوال تلك الساعات لم يتوقف إسماعيل عن قراءة القرآن ولا حتى لدقيقة واحدة، إلا أنه ما أن سمع صوت الأذان حتى قام وعانق زوج خالتي أبي أمين وخالتي أم أمين وعاد بهما إلى المنزل، حيث صلى بهم إماماً صلاة الفجر، فقد كان عددهم مجتمعين يزيد عن الثلاثين، ثم عاد إلى المستشفى ليجدني ما أزال جالسة أقرأ القرآن كما تركني قبل ساعات، فأنا أيضاً لم أتوقف عن قراءة القرآن إلا لأداء صلاة الفجر... عاد إسماعيل فقبّل رأس أمه النائمة على سرير الشفاء وقبّل رأسي أيضاً.

ما أن كرّر تقبليه لرأسي حتى سقطت أرضاً مغمياً علي، ولم أستفق إلا وأنا ممددة على أحد الأسرة بجوار خالتي أم عوض، ففتحت عيني لأجد حولي إسماعيل

وبجواره طبيبة وممرضة، وكانت كلتاهما تقولان لإسماعيل مبروك يا أبا النور.. نور قادم في الطريق، لكن يجب عليك أن تحرص على صحة أم نور، فيبدو أنها مهملة جداً في صحتها.. عاود إسماعيل تقبيل رأسي قائلاً لي: مبروك يا ماجدة.. مبروك يا أم النور.. فنور بإذن الله قادم، ولذلك عليكِ أن لا تنسي تناول طعامكِ بعد الآن.

لم أشأ أن أقول لإسماعيل أنني كنت أعلم بحملي منذ عدة أسابيع منذ أن دنّس ذلك النجس القدس، منذ أن اندلعت الانتفاضة، لكني لم أشأ بل لم أستطع فما زلت متعبة خائرة القوى حتى أن صوتي لم يكن قادراً على الخروج من فمي.

في سيارة الإسعاف.. جالسة بجوار خالتي أم عوض الممددة على سرير سيارة الإسعاف، وصلنا سوياً مع إسماعيل إلى منزلنا، فقد تحسنت صحتي بعد أقل من يوم واحد على وقوعي مغمىً علي، أما خالتي فقد احتاجت لعدة أيام حتى استطاعت أن تتجاوز بعون الله أزمتها القلبية.

وصلنا إلى البيت محملين بالأحزان والآلام، ومحملين بنور بين أحشائي.. تلك النور التي أدعو الله أن ترى نوره، وقد حُررت أرض فلسطين من دنس المحتلين الصهاينة.

أمضيت أيامي التالية في رعاية خالتي أم عوض، وفي مواساة خالتي أم أمين، وفي متابعة عدد الشهداء الذين ما عدت أذكر عددهم، فقد أصبحوا بالمئات بل وصول إلى ما يزيد عن الألف، أما الجرحى فلقد كنت أرى دماءهم مخضبةً ثوب زوجي إسماعيل عندما أقوم بغسله، فبعد أن كنت أغسل ثوب زوجي المرض مرتين في الأسبوع، أصبحت الآن أغسل له كل يوم ثوبين أو ثلاثة، وكانت كلها تخرج من بين يدي بيضاء ناصعة، لتعود بعد يوم واحد مليئةً بالمسك والعنبر، مليئة بدماء الجرحى والشهداء.

كنت حزينةً متألمة، ومع ذلك فقد جعلتني هذه المحنة الممتدة منذ عدة أسابيع قويةً وصلبةً، ما عدت الفتاة المراهقة التي عبرت الجسر قبل أشهر لتزف إلى عريسها، بل أصبحت امرأة فلسطينية، أصبحت ابنة المخيم.

ما عدت أذكر كم بيتاً للعزاء قد زرت لأقدم التهاني لذوي الشهداء، وما عدت أذكر عدد الجرحى من أبناء مخيم جنين الذين أوصلت لهم الدواء بناءً على طلب إسماعيل.

لم تعد المشافي قادرة على استقبال المزيد من الجرحى والمصابين، فأصبحت بيوت الجرحى هي مشافيهم، وأصبح الأطباء والممرضون يتنقلون بينها. أما أنا فقد تطوّعت لمساعدة زوجي ولقد رحّب بذلك.

ذلك الزوج الذي رغم أنني أصبحت متطوعةً إلى جواره، إلاّ أنه كان يغيب بالساعات وبالأيام دون أن أعلم أو أدري أين هو، فلم أكن قادرةً على سؤاله، إلا أن إحساسي وشعوري يقولان لي أنه هناك مع رجال المقاومة الإسلامية.. يقاوم تارةً ويداوي جراح المقاومين تارةً أخرى.

أما الجامعة، فقد كنت أتابع حضور محاضراتي بها بعد أن فتحت أبوابها متحدية حزنها على عشرات الطلبة الذين ارتفعوا إلى جنان الخلد شهداء من أجل فلسطين.

أما أمي، فقد كانت تتصل بي كل يوم مرةً أو أكثر، كانت تحادثني في أي وقت وأي ساعة، فبمجرد أن تسمع خبراً عن مخيم جنين، كانت تتصل للاطمئنان علي وعلى أخواتها وأبنائهم، فقد كان المخيم يعجّ بأقاربنا، ويعجّ بالجرحى والشهداء.

كنت في طريق عودتي من الجامعة عندما انهالت قنابل الغاز المسيل للدموع على الحافلة التي كانت تقلني مع عدد من الطالبات اللواتي يدرسن معي في الجامعة ويسكن في مخيم جنين.

في تلك اللحظة، اشتعلت عيناي وأصبحتا كأنهما جمرتان قد غرستا تحت جفوني.. انهالت دموعي... ما عدت قادرة على التنفس.. ما عدت قادرة على الرؤية.. ما عدت أدري ماذا حدث معي، فأنا ما عدت في وعيي بل سقطت مغشياً علي من شدة تأثير ذلك الغاز السام الذي ملأ أرجاء الحافلة، وسقطت معي عدة فتيات في غيبوبة.. جعلتنا أمواتاً أحياناً نرى ولا نرى، نسمع ولا نسمع، ذلك كان حالي وحال أخواتي الطالبات.

كما هي العادة، وجدت إلى جانبي عندما استيقظت في المستشفى زوجي إسماعيل.. وجدته وقرأت بعينيه ما كنت أخشى منه، وشعرت من قبضة يده التي كانت ممسكة بيدي ماذا يريد أن يقول.

حسبي الله ونعم الوكيل.. من الله وإلى الله، ردد تلك الكلمات ورددتها معه، فقد جعلني ذلك الغاز السام المستخدم في القنابل المسيلة للدموع أفقد جنيني، أفقد طفلتي نور.. استشهدت بداخل أحشائي، ولم يكتب لها الله تعالى أن ترى نور الدنيا ولا نور دحر الاحتلال.

لم تكن عيناي قادرتان على البكاء، فما عاد بهن دموع، ولم يكن صوتي قادراً على الزغردة مثلما تفعل أمهات الشهداء، بل لم أكن أدري ما حلّ بي، فقد أغمضت عيني مرغمة بفعل الدواء المسكن وغرقت في غياهب السكون.

بعد فجر اليوم التالي استيقظت لأجد إسماعيل وخالتي أم عوض وسائر خالاتي وأقاربي حولي في المستشفى، كانوا هنا لكي يأخذوا طفلتي من ثلاجة الموتى...

نعم بتلك الليلة باتت طفلتي نور وحيدةً تحت البرد في ثلاجة الموتى داخل المستشفى، لم تبت في حضني مثل سائر الأطفال الذين يولدوا مبكراً.. استشهدت وهي ابنة سبعة شهور لا أكثر.. كم أنا أم قاسية.. أم عديمة الإحساس، كيف أغيب عن الوعي مستسلمة للدواء المسكن تاركةً طفلتي بعيدة عني وعن صدري.

لا.. وألف لا.. لن أسمح لهم بأن يأخذوا طفلتي لتدفن دون أن أراها.. دون أن أقبلها وأكون برفقتها.. قمت من السرير متحدية ألم جسدي، متعاليةً على جرحي النازف، مصرةً على أن أحمل طفلتي وأودعها.

إلاّ أنني كنت بحاجة ماسة لمن يحملني، فجسدي كان أضعف بكثير من إرادتي، فقد نزفت دماءً كثيرة قبل أن أصل إلى المشفى عندما أصبت بالغيبوبة في الحافلة.

لذلك فقد حملني إسماعيل بين ذراعيه، أما أنا فقد حملت طفلتي الشهيدة وضممتها إلى صدري. بلا دموع وبلا زغاريد وصلنا إلى بيتنا هناك، حيث سجى جسد الرضيعة نور، وجلست أنا بجوارها مع جدتها ووالدها، جلسنا ننظر إلى ذلك الوجه الملائكي الجميل.

وضعت تحت رأسها الجميل وسادة صغيرة، كنت قد صنعتها وطرزتها خصيصاً لها، وإلى جوار جسد الرضيعة الشهيدة نور، وضعت ملابسها التي كنت قد اشتريتها لها استعداداً لولادتها، كانت ملابس وردية جميلة، ولقد كانت خالتي قد اشترت هي الأخرى لنور الكثير من الملابس، حتى أنها اشترت لها قبعة صغيرة رائعة وضعتها على رأس طفلتي حتى لا تشعر بالبرد... فيكفيها برد الثلاجة التي عانت منه طوال الليلة الماضية... لا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.. هو من وهب، وهو من قضى أمره، فليس لي سوى القبول بقضاء الله عزَّ وجلَّ.

حمل إسماعيل طفلتنا نور بعيداً عني إلى المسجد ليصلي عليها المصلُّون بعد صلاة الظهر... فصلى وصلوا هم أيضاً ثم عاد بها لكي تودع بيتها.. تودع غرفتها وسريرها الذي لم يكتب لها الله أن تنام فيه، ودعت ألعابها وملابسها ودعت كتباً أعددها خصيصاً لها، فقد كنت أنتظرها على أحر من الجمر، أنتظر أن تولد لألاعبها وأعلمها وألبسها كل يوم ثوب أجمل من ثوب اليوم الذي سبقه.

أخذت طفلتي نور من بين ذراعي والدها إسماعيل وضممتها إلى صدري.. وبكيت.. نعم بكيت، فكيف لطفلة مثلي لم تتجاوز بعد عامها الثامن عشر أن تكون قوية ولا تبكي وهي تودع طفلتها الرضيعة!.. طفلة ودعت طفلة هذا هو حالي وحالها.

أقسم أنها ضحكت لي وأنا أحضنها، بل أقسم أنها حدثتني على الرغم أن عمرها سبعة أشهر، وأقسم أنني تمنيت لو أنني استشهدت معها لكي ندفن سوياً لتأنس إحدانا بالأخرى، رفضت أن أعطيها لأبيها، رفضت أن أسمح لهم بأن يأخذوها من بين ذراعي بعيداً إلى المقبرة... مما جعلهم يرضخون لي ولتوسلاتي لهم ولدموعي المنهمرة، فأخذوني معها بل أخذوها معي.. حيث ذهبنا سوياً إلى المقبرة، وهناك أعطيتها لوالدها إسماعيل فأنزلها إلى القبر الصغير الذي حفر بجوار قبر إبن خالتها مؤمن.. فما عاد مؤمن وحيداً بعد الآن، فقد قلت له بعد أن قرأت الفاتحة على قبره أنني أودع ابنتي نور أمانةً عندك، فأرعاها واسهر على راحتها فهي طفلة رضيعة، أما أنت فطفل قوي مقاوم.

حسبي الله ونعم الوكيل على ذلك المحتل المجرم الذي حرمني من ابنتي وحرم أهل فلسطين من أطفالهم، فلذات أكبادهم.... كانت جنازة طفلتي جنازة صامتة مؤلمة.. فلقد أحرق استشهاد نور قلوب أطفال المخيم وقلوب نساء المخيم... وقلوب رجال المخيم أولئك الرجال الذين أقسموا بصوت عالٍ، أما إسماعيل فقد أقسم بصوت خافت..صوت لا يكاد يسمع إلاّ أنني سمعته وأدركت أن زوجي إسماعيل قد عزم على أمرٍ ما.

إلى بيتنا عدنا.. عدنا لنجد أن خالتي أم عوض قد أصيبت بجلطة قلبية قوية، وقد تم نقلها إلى المستشفى، وعندها رفضت أن أمكث في المنزل لاستقبل المهنئات باستشهاد طفلتي نور، ولحقت بخالتي إلى المستشفى خوفاً من أن أفقدها هي الأخرى.. أمضيت أيامي بجوارها في المستشفى وأنا ممددة بجوارها، فقد عاد النزيف لجسدي وأجبرني الأطباء على البقاء نائمة على ظهري طوال مدة وجودي بالمستشفى.

لم تتمكن أمي أو أحد من أخواني وأخواتي من الحضور إلى فلسطين من عمّان، فقد منعوا من قبل قوات الاحتلال، مما جعلني أشعر رغم وجود إسماعيل إلى جواري طوال الوقت بالوحدة والضعف، أشعر بالغضب والرغبة بالثأر لطفلتي نور.

بعد نحو أسبوعين، تحسّنت حالة خالتي أم عوض، وتحسنت حالتي الصحية، إلاّ أن حالتي النفسية لم تزل كما كانت، فصورة ابنتي الشهيدة نور لم تفارق خيالي ولو لحظة واحدة.

عندما عدت إلى بيتي، كنت أهرب إلى النوم وأكره اليقظة، أهرب إلى الأحلام حيث كانت هناك نور... أغمض عيني مصطنعة النوم حتى أتوه بين الحلم والتخيل، أصبحت كثيرة الشرود... غائبة الذهن والفكر.

وداعاً مخيم جنين.. وداعاً نور

بعد أن صليت الفجر أنا وخالتي خلف زوجي إسماعيل، طلب منا أن نعد حقائبنا مصمماً ومصراً على أن يرسلني إلى عمّان، خالتي أحبت الفكرة ورحّبت بها، لكني رفضت السفر.. فكيف أترك ابنتي لوحدها في مقبرة المخيم، فقد تعودت على زيارتها كل يوم بعد صلاة العصر، لأجلس بجوارها ولأحدثها وتحدثني... كيف أتركها وأترك المخيم الذي يحضن ترابه جثمان ابنتي الشهيدة نور!.

حاولت كثيراً أن أثني إسماعيل عن جعلنا نسافر إلى عمّان، إلاّ أنه كان أشدّ إصراراً وعزماً مني، فما كان مني سوى أن أعددت حقيبةً واحدةً صغيرة تكفيني لعدة أيام لا أكثر، كان إسماعيل قد وصل إلى استنتاج يدل على أنني قد أصبحت جسداً بلا روح بسبب حزني على طفلتي، ولذلك فقد عزم على جعلي أغادر المخيم لعلي أجد هناك في عمان روحي التي فقدتها، ولعلي أعود كما كنت سابقاً... مرحةً سعيدةً حالمةً ومشاكسة.

وضع إسماعيل حقائبنا في سيارة أخيه عوض، ثم اقترب مني وقال: حبيبتي الجميلة أم نور، أعتذر منكِ على عدم مقدرتي ركوب السيارة معكم لكي أوصلكِ إلى الجسر الحدودي، أما السبب فيعود لكوني قد أصبحت مطلوباً ومطارداً من قبل قوات الاحتلال، ولذلك أرجو منكِ أن تبقي في عمّان عند والدتكِ أطول فترة ممكنة.. الأمور في فلسطين صعبة وفي المخيم أصعب بكثير من باقي المناطق، ولذلك استحلفكِ بالله يا حبيبتي الجميلة يا أم نور يا أم طير الجنة أن تنسي همومكِ وأحزانكِ، وأن تسعدي ولو قليلاً عند أهلكِ في عمّان.

طبع قبلة على يد أمه، وقبلة على رأسي، وودعني أبو نور، ودعني لأصعد إلى السيارة بإحساس جديد، وهمٍّ من نوع آخر، وهو إحساس زوجة المقاوم المطارد..

زوجة المطلوب القبض عليه أو قتله من قبل قوات العدو الصهيوني، حزناً على حزن.. وهماً فوق هم... اجتزت الجسر الحدودي وعبرت مع خالتي إلى الضفة الأخرى للنهر الجاف.. نهر الأردن... عبرت بعيون جفت دموعها تاركةً روحي هناك في مخيم جنين.

ما أن أنهينا الإجراءات على الحدود حتى رأيت أمي وبجوارها أختي فاطمة... ورأيت الآخرين.

عانقت أمي فبكت هي، أما أنا فحاولت ولكني لم أستطع البكاء.. وعانقت فاطمة التي كانت تبكي بصوت حزين، ومع ذلك لم أستطع البكاء.

عانقتني امرأة كانت ترتدي النقاب، وكانت هي الأخرى تبكي، لكني لم أعرفها.. ولم أعلم من تكون، ولكني علمت أنه ما عاد دمع العيون يواسيني ولا ينسيني.

في الطريق إلى منزلنا في عمان كانت السيارة أشبه ما يكون بقاعة استقبال المعزين، فكلهم كانوا يبكون حتى أخي نجيب كان يجفف دمعه بين الحين والآخر.

أما أنا فقد كنت الحاضرة الغائبة. وصلنا إلى منزل أمي وهناك كان الكل بانتظاري، وعلى الرغم من مرور عام على سفري إلى فلسطين ومرور عدة أشهر على استشهاد طفلتي نور، إلاّ أن كل النساء والفتيات كن يلبسن اللون الأسود تعبيراً عن حزنهن وألمهن.

تلقيت تعازي المعزيات... وتهاني المهنئات بهدوء وبصمت، أما غالبية المعزيات فقد كن يبكين، فهن أيضاً مصابات بفقدان أخ أو أخت.. أب أو أم.. إبن أو إبنة، هن فلسطينيات يعشن في عمان، لكن معظم أقاربهنَّ يعيشونٍ هناك خلف الحدود، يعيشون تحت بطش آلة البطش والدماء الصهيونية.

فهذه التي تجلس بجواري فقدت أخاها قبل شهرين، وتلك التي تصافح يدي الآن فقدت والدها قبل عدة أشهر، فمن منّا يعزي الآخر؟ ومن منا يشد من عزم الآخر؟... لست أدري ولا أظن أن المعزيات يدرين أيضاً.

مضى يومي الأول في عمان وأنا على هذه الحال، أما في اليوم التالي فبدأت الأمور تتبدل تدريجياً، فعلى سبيل المثال فقد أدركت أن تلك المرأة التي عانقتني

وهي تبكي يوم أمس كانت ليلى.. نعم الليدي ليلى، فقد تغيّرت وتبدّلت وأصبحت تواظب على الصلاة وحضور دروس الدين، بل أنها لم تكتفِ بوضع الحجاب بل أصبحت ترتدي اليوم النقاب، ولم يكن من المستبعد أن تتبعها بذلك أختها سميرة.

وقد لاحظت أيضاً أن علاقة والدتي وأختي فاطمة أصبحت أكثر وداً وحباً مع ليلى وأختها سميرة... عندما سألت فاطمة عن سبب التزام ليلى الديني، أجابتني ببساطة أنها الانتفاضة.. الانتفاضة في فلسطين، والقتل اليومي الذي تمارسه قوات الاحتلال بحقكم هناك، أثّرت بنا هنا في عمّان، بل أثرت في كل مسلم ومسلمة، مما جعل الناس يعودون إلى الدين ويقتربون من بعضهم بعضاً.

هل تصدقين أن ليلى وسميرة قد تبرعتا بكل مصاغهن الذهبي من أجل فلسطين يوم علمنا باستشهاد طفلتكِ نور، وأنهما كانتا قد ارتدتا الحجاب والنقاب بعد استشهاد ابن خالتهما مؤمن.

لقد تبدلتا وتغيرتا كثيراً.. بل تبدلنا كلنا رغم أننا لسنا في فلسطين، إلاّ أن التلفاز كان يعرض كل ما يجري تقريباً بشكل مباشر، مما جعلنا نعيش معكم الحدث.

كنا نراكم تصابون برصاص الاحتلال، ونراكم تحملون على الأكتاف شهداء.. كانت أرواحنا معكم وكنا ندعو لكم من صميم قلوبنا.

هل تعلمين يا أختي أننا كنا نقف بالصفوف الطويلة أمام بنك الدم؛ لكي نتبرع لأهل فلسطين بدمائنا بعد أن كنّا قد تبرعنا بمالنا وحلينا الذهبية.

ماجدة.. اسمعي يا أختي الحبيبة، وافهمي جيداً ما سوف أقوله لكِ، فاستشهاد طفلتكِ نور قد آلمنا كما آلمكِ.. وقد أبكانا وأحزننا كثيراً، ولذلك يا أختي الحبيبة انظري إلى المستقبل واعملي على بناء حياتكِ من جديد، عودي إلى جامعتكِ، عودي إلى دراستكِ، وإلى بيتكِ لتملئيه أطفالاً.

أعلم أن الأمور لن تكون سهلةً وبسيطة، ولكني أعلم أيضاً أنكِ أنتِ تحديداً فتاةً مسلمة ومؤمنة بقضاء الله وأمره، ولذلك أنا لا أطلب منكِ أن تنسي لأنكِ لن تنسي أبداً، ولكن أطلب منكِ أن تتطلعي إلى المستقبل وتتجاوزي الماضي.

بعد عدة أسابيع أمضيتها في عمان، استطعت أن أسترد عافية جسدي وعافية قلبي، فالأيام تداوي الجراح وتطوي الآلام، وعندها أحسست أنني بحاجة لكي أعود إلى مخيم جنين عند زوجتي، فهو الآن بأشد الحاجة لوجودي بجواره، فهو أيضاً أب فقد فلذة كبده، أب فقد نور التي أسمى نفسه باسمها قبل أن يراها وقبل أن تولد، وهو الآن مطارد من قبل قوات الاحتلال.. أدركت أن إسماعيل يحتاجني عوناً له في مواجهة مصاعب الحياة.

ما أن أكملت الشهر على وجودي في عمّان، حتى حزمت حقائبي وعدت مع خالتي إلى مخيم جنين، طوال ذلك الشهر لم أستطع التحدث والاتصال بإسماعيل، لأنه أصبح لا يستطيع التحدث بالهاتف الجوال حرصاً على أمنه وسلامته، فهو مطارد ومطلوب... حياً أو ميتاً، فيبدو أن زوجي قد خلع ثوب التمريض الأبيض ليرتدي البزّة العسكرية المموهة ويضع العصبة الخضراء، عصبة المقاومة المسلحة.. عصبة القسام.

وصلنا إلى المخيم في ساعة متأخرة من الليل، رغم أننا قد تركنا عمان في وقتٍ مبكر، فقد كانت نقاط التفتيش في كل مكان سواء في الشوارع الرئيسة التي أغلقت أو في الشوارع الترابية.. ورغم وصولنا إلى المخيم، إلاّ أننا لم نتمكن من الدخول إليه إلاّ بعد طلوع نور الشمس، فقد كان المخيم محاصراً من كل الجهات من قبل قوات الاحتلال.

وما أن تمكنّا أنا وخالتي من الدخول إلى قلب المخيم، حيث يوجد منزلنا، حتى وجدت منزلي وقد قُلب رأساً على عقب، ولم أجد زوجي إسماعيل، إلاّ أنني وجدت أمين ابن خالتي نائماً في المنزل.

بدون أن أسأله عن سبب هذا الخراب الذي حلّ ببيتي، قال أن إسماعيل أصبح مطلوباً للاحتلال، إلا أنّ الاحتلال لم يكن يستطيع دخول المخيم، فأوكل هذه المهمة لأجهزة أمن السلطة، فقامت بمداهمة منزل إسماعيل بحثاً عنه، وبحثاً عن أسلحة قتالية... إلا أنهم لم يجدوا إسماعيل ولم يجدوا أي شيء آخر يفيدهم، فقاموا بتخريب كل ما يحتوي المنزل بعد أن كسروا الباب.. أما أنا فقد نمت هنا بناءً على

طلب إسماعيل الذي كلّفني بإصلاح الباب وإعادة صيانة المنزل من جديد. وكان ذلك قد حصل يوم أمس، وها أنتم تصلون اليوم بلا ميعاد وقبل أن أنفّذ ما طلب مني.

تركنا أمين وذهب لإحضار حدّاد ليصلح باب المنزل المكسور، وأما أنا وخالتي وبعض جاراتي من نساء المخيم، فقد قمنا بإعادة ترتيب البيت وإصلاح ما تكسر، وخياطة ما تمزّق...

رغم مرور عدة أيام على وصولنا، إلاّ أنني لم أستطع مقابلة زوجي، فلقد كان مختفياً عن الأنظار، إلاّ أن أمين قد أوصل لي رسالة منه تطمئنني عن حاله في أسفل الرسالة كان هناك رقم مكتوب بالخط العربي وبلونٍ غير لون القلم الأزرق كان الرقم (ثمانية) وكان اللون الذي كنت به الرقم الأخضر.

لم أفهم معنى ذلك الرقم، إلاّ أنني فهمت دون أن يطلب مني إسماعيل ذلك، أنه يجب علي إتلاف تلك الرسالة... كم حمدت الله تعالى على أنني لم أكن قد دوّنت مذكراتي خلال العام الماضي، وإلاّ لكان مثل حبل المشنقة الذي يلف على من يحكم عليه بالإعدام.

ويعود سبب ذلك لأن إسماعيل كان مقاوماً متستراً، إلاّ أنني كنت زوجةً ذكيةً ترى وتسمع، وذكيةً أكثر بحيث أن ذكرياتي أصبحت بلا حبر وورق، بل أصبحت بداخل عقلي.. فقبل أن أعود إلى فلسطين كنت قد قلبت في دفتر مذكراتي الذي كان في حجرتي في عمان، ووجدت بداخله أموراً ما كنت أتخيل أنني أنا التي قمت بكتابتها، فقد كنت أكتب وأصف كل شيء وبشكل دقيق جداً ومحرج في كثير من الأحيان.

لذلك قمت بشراء صندوق حديدي وضعت بداخله تلك المذكرات قبل مغادرتي لمدينة عمّان.. رغم عدم تمكّني من رؤية إسماعيل، إلاّ أنني كنت أزور قبر طفلتي الشهيدة نور، وهناك كنت أقرأ الفاتحة على روح ابنتي، وكنت أقرأ رسائل زوجي إسماعيل، فقد كان إسماعيل يخبئ لي الرسائل بجوار قبر نور.

على الرغم من كل ما مررت به، إلا أنني تمكَّنت من اجتياز امتحانات كلية الصحافة والإعلام، فقد كانت كتبي الدراسية ملاذي وتسليتي في غياب زوجي، وفي ظل الحصار المفروض على مخيم جنين.

الحصار استمر عاماً آخر، واستطعت خلال ذلك العام أن أجتاز الامتحانات مرةً أخرى فتم ترفيعي إلى السنة الدراسية الثانية، بعد أن أكملت عامين دراسيين كاملين في كلية الصحافة والإعلام... كانت الأيام تمرّ، وكان الحصار يشتد ويزداد وتحوّل المخيم إلى خلية نحل تعمل ليلاً نهاراً استعداداً للاجتياح... كان الاجتياح العسكري قادماً لا محالة؛ لأن مخيم جنين قد تحوّل ليصبح شوكةً في عين الاحتلال، شوكةً قويةً ومؤثرة مما جعل أهل المخيم يعدّون العدة ويأخذون الاحتياطات تداركاً للاجتياح.

أما أنا، فقد حوّلت منزلنا إلى ما يشبه مركز الإسعاف الأولي، فزوجي إسماعيل كان مقاوماً مقاتلاً وكان ممرضاً مداوياً، كانت بيوت المخيم قريبةً جداً بعضها من بعض، ولذلك ما أن بدأ الاجتياح حتى تم عمل فتحات بجدران تلك البيوت، فأصبح المقاومون ينتقلون عبر البيوت بدلاً من الأزقة والشوارع التي كانت عرضةً لقصف الطائرات ولقنص جنود الاحتلال.

في تلك الأثناء، توقفت رسائل إسماعيل، فقد أصبحت أستطيع مقابلته ورؤيته بشكلٍ يومي، مما جعلني أساله عن ذلك الرقم المكتوب باللون الأخضر، فقد كان ذلك الرقم يتغير كل عدة أشهر، فبعد أن كان ثمانية تحول إلى أحد عشر، ثم إلى عشرين، وفي آخر رسالة كان العدد قد قارب على الثلاثين.. سألت إسماعيل عن معنى ذلك الرقم فأجابني قائلاً:

قولي لي أنتِ ماذا يعني لكِ ذلك الرقم المتصاعد، فأجبته قائلةً لقد استشهدت ابنتنا نور بالغاز السام وأجزم أن ذلك الرقم هو عدد من مكّنك الله تعالى من القصاص منهم.. هو عدد قتلاك يا ابن القسام من الصهاينة المحتلين.

اقترب مني مقبلاً رأسي كعادته، وقال: لقد دعوت الله أن يُمكنني من عشرة منهم، لكن الله كعادته كريم مجيب دعوة المظلوم، ولذلك بعد أن أكملت العشرة، فأنا بالعشرين واليوم بإذن الله اقترب من إكمال الرقم ليصل إلى ثلاثين.. ثلاثون من جنود العدو دستهم بقدمي نصرةً لدين الله تعالى وإعلاءً لفريضة الجهاد... عندها أخذت يديه مقبلة إياهما، داعيةً الله عزَّ وجلَّ أن يسدد رميه وأن يمكنه من الصهاينة المحتلين.

على الرغم من قسوة القصف وشدة شراسة الهجمة التي كان المخيم يتعرض لها أثناء الاجتياح، إلاّ أننا كنا أنا وإسماعيل قريبين أحدنا إلى الآخر أكثر من أي وقت مضى.. حتى أنني ذكرت له لقبه الذي كنت قد أطلقته عليه عندما خطبني وهو « الأمير الخجل « ثم «الأمير الغضبان» وبعدها «الأمير الغضبان والمقاوم» ولم أكتفِ عن إطلاق الأوصاف إلا عندما علمت أن لقبك هو «أبو نور» عندها زالت تلك الألقاب والأوصاف السخيفة، وحل محلها النور يا أبا النور، ولقد قال لي هو أنه قد أطلق علي اسماً ولقباً أثناء فترة خطبتنا، فسألته عنه، وبعد إلحاحٍ قال لي لقبكِ لدي كان الأميرة الحالمة...فلقد كنت أدرك أن فتاةً في مثل عمرك كانت تحلم أن تكون أميرة، ولذلك فقد عاهدت نفسي أن أحقق لكي كل طلباتكِ بلا شرط وبلا قيد، فأنتِ أميرتي الحالمة كنتِ وما زلتِ، أما أنا فلا أظن أنني استطعت التحوّل من الأمير الخجل للأمير الفارس فلا أملك حصاناً ولا سيفاً.

أجبته قائلةً: بل تملك رشاشاً، وهو سيف هذا الزمان، وتملك قلب أمير وهيبة الفارس المقاوم.. لم يكتفِ جيش الاحتلال بالقصف من خلال الطائرات والدبابات، بل قام بإحضار الجرافات العملاقة وبدأ بهدم بيوت المخيم.. كانت الجرافات تهدم المنازل بشكل تدريجي ومنظم، وكانت المدافع تطلق قذائفها نحونا بلا هوادة.

جوع وعطش.. جراح وألم.. كانت تلك حالتنا الجسدية، أما حالتنا النفسية، فقد كانت تعانق السماء فخراً وعزة وكرامة.. كنت أخشى أن تصاب خالتي بنوبة قلبية جديدة، إلاّ أنها كانت قوية بشكل لا يصدق، كانت أماً مقاومة تعجن العجين، وتخبز الخبز لتوزّعه على رجال المقاومة بعد أن نضع عليه الزيت والزعتر.

أما أنا فكنت تارةً أضمد جراح الأطفال المصابين، وتارةً أساعد الأمهات بدفن أطفالهن الشهداء بداخل أفنية البيوت، تلك البيوت التي قصفت حتى أنهكت قداستها الجرافات الضخمة محولةً إياها إلى ركام...

أم عوض وبيت أم الشهيد مؤمن خالتي أم أمين.. كل البيوت ما عادت بيوتاً، وما عاد المخيم مخيماً بل تحوّل إلى مقبرة لأحياء كثر دفنوا تحت أنقاضه، ولأموات كثر كانوا قد دفنوا داخل منازله دفاعاً عنه، كلهم كانوا تحت الركام.

أما أنا وخالاتي، فلم نكن تحت الركام بل كنا تحت القيد وفي الأسر.. لقد تم اعتقالنا واعتقال عدد كبير من نساء وأطفال المخيم المدمر، وتم اقتيادنا إلى أحد مراكز التحقيق، حيث حقق جنود وضباط المخابرات معنا ثم أطلقوا سراحنا بعد عدة أيام... عدنا سيراً على الأقدام إلى مخيم جنين، فوجدناه قد قلب رأسها على عقب، حتى أنني لم أتمكن من معرفة المكان الذي كان به منزلي، ولم تتمكن خالتي أم عوض التي عاشت حياتها كلها بين أزقة المخيم من معرفة مكان بيتها، فلم يعد بالمخيم أزقة ولا جدران.. تراب وركام ورائحة الموت تفوح في كل مكان.

كان عوض وأبناؤه يبحثون عنا بين الركام، فقد تمكنوا من دخول المخيم بعد أن انسحبت قوات الاحتلال منه، فعوض وأبناؤه يسكنون في منزل بمدينة جنين، فوجدنا ووجدناه، ولقد اصطحبنا واصطحب باقي خالاتي معه إلى منزله، حيث استقبلت زوجته إيمان بصدرٍ رحب ووجهٍ بشوش.

رغم قساوة الاجتياح إلا أن الله عزَّ وجلَّ قدّر أن لا يستشهد أحدٌ من أقاربنا، فقد كانوا كلهم رغم الجراح والآلام أحياءً معافين.

أما أميري المقاوم أبو النور زوجي الحبيب، فلم أكن أعلم عن مصيره شيئاً، ولم يتمكن أحدٌ من أخوته أو أقاربنا ومعارفنا من معرفة شيءٍ عنه.. حتى أمين ذلك الشاب الذي كان يرافقه دائماً لم يكن يعلم عن ابن خالته شيئاً أو لم يخبرني سوى أنه رآه قبل سقوط المخيم بقبضة قوات الاحتلال معافىً وسليماً.

نورٌ ونور وأمل

حيث كان يضع لي الرسائل بجوار قبر ابنتنا الشهيدة نور.. وضعت له اليوم رسالة كتبت فيها: نورٌ ونور وأمل... نعم يا زوجي الحبيب.. نعم أيها المطارد البطل، لقد أخبرتني الطبيبة النسائية يوم أمس أنني حامل، وزادت فرحتي بأن قالت لي أنني أحمل بداخلي بنتاً وإلى جانبها ولدٌ، ولذلك أقول لك أنه بإذن الله تعالى سوف نسمي الولد نور ونسمي البنت أمل.

بعد أيام، وجدت رسالةً منه كتب فيها ألم أقل لكِ لا تقنطي من رحمة الله عزَّ وجلَّ.. ألم أقل أن النور قادم والظلام بإذن الله زائل، فلكل ليلٍ فجر، ولكل فجرٍ فرحة.. مبروك يا زوجتي الحبيبة، مبروك يا رفيقة دربي على ما قسمه الله لنا.. مبروك وألف مبروك... 34 أربعة وثلاثون.

34 أربعة وثلاثون مكتوبة بلونٍ أخضر، لقد فعلها زوجي المقاوم، ونجح في أن يسدد رصاص بندقيته إلى صدور الأعداء، نجح بأن يوقع بالعدو أكثر مما كان يظن بأنه يستطيع.. ذلك كله كان بتوفيق من الله.. الله الواحد الجبار.

بقي زوجي على مدى الأشهر الماضية مطارداً، أما أنا فلم أبقَ حاملاً بداخلي نور وأمل، بل منّ الله عليَّ أن أنجبتهم ليرى فجراً جديداً.. قالت لي خالتي أم عوض أن نور يشبه والده كثيراً جداً، أما أمل فقالت أنها نسخةً مطابقة لي على الرغم من أنه لم يمضِ على ولادتهم سوى بضعة أيام، إلا أن جدة أطفالي جزمت وأصرت على ما قالته.

اليوم تمكنت بفضل الله من إنهاء عامي الثالث بكلية الصحافة والإعلام.. كل ذلك حدث ونحن ما نزال ضيوفاً عند عوض أخي إسماعيل الأكبر، وعلى الرغم من أن أقامتنا عنده قد طالت، إلا أننا كنا مضطرين لذلك، فبعد أن دمّر بيتنا لم يكن من

مأوى سوى بيت عوض... إلا أن إسماعيل ورغم كونه مقاوماً مطارداً قام بتكليف ابن خالته أمين لكي يشتري قطعة أرض صغيرة بجوار منزل أخيه عوض.. وطلب منه أن يشرف على بناء منزل جديد بها.. عندما كتب لإسماعيل رسالة عن مصدر المال، فأنا أعرف أن زوجي لم يكن يملك مالاً.. أجابني قائلاً إسألي خالتكِ أم عوض، فالمال مالها هي، وهي وحدها من تعرف مصدره، أما أنا فلم يكن لي دور سوى أن كلفت أميناً بأن يقوم بما لا أستطيع القيام به لكوني مطارَداً من قبل قوات الاحتلال ومطارِداً لهم أيضاً.

إذاً هي خالتي أم عوض من كانت صاحبة المال، ومع ذلك سألتها فأجابت كما تعلمين يا ابنتي ليس أغلى من الابن إلا ابن الابن، وإسماعيل مطارد وله طفلان نور وأمل، ولذلك فلقد قمت بجعل عوض يبيع قطعة أرض زراعية كانت لي ولقد ورثتها عن والدي، وها أنا اليوم أورثها لولدي وزوجته وأبنائهم.

لا تقلقي فلقد رحبت ليلى وسميرة وعوض بأن يكون ثمن تلك الأرض هدية لإخيهم الأصغر إسماعيل... أما أخواكِ فقد طلبا من عوض أن يضيف على ثمن الأرض المباعة أرباح مصنعهم ومعصرتهم خلال العام الماضي، وذلك ليتم إنشاء منزلكم الجديد على أحسن وجه، أما أثاث المنزل فهو هدية من أختكِ فاطمة وزوجها عبيدة.

لقد فعلت ذلك دون معرفتكِ ودرايتكِ، لأنني كنت أعلم أنكِ سوف ترفضين وتعارضين أن يقدم لكي أحد المساعدة، وقد عارض زوجكِ في البداية قيامي بذلك، إلاّ أنه شاب مسلم ملتزم بتعاليم دينه، ذلك الدين الذي فرض عليه السمع والطاعة للأمة.. وأنتِ أيضاً يا ابنتي يا أم نور وأمل عليكِ القبول والانتقال إلى المنزل الجديد، حتى تبدئي حياتكِ مع أطفالكِ بحرية، فأنتِ قد تكونين قادرة الآن على السيطرة عليهم، فهم صغار، أما غداً فسوف يكبرون ويكبرون، ولذلك حتى لا نكون ضيوفاً ثقالاً على عوض، فإن بيتنا الجديد أولى بنا.

بقدر ما كان المنزل الجديد جميلاً ورائعاً، وبقدر ما كان كاملاً ومتكاملاً، إلاّ أن تكاتف العائلة معنا كان أجمل وأروع.. وكان قد وصل إلى حد الكمال، فقد ساهم

الجميع في بناء منزلنا وإعادة بناء مستقبلنا.. مستقبل خطوات قوة جديدة نحوه بعد عام من انتقالي للمسكن الجديد، فقد منّ الله عليّ أن أنهيت دراستي الجامعية وبشكلٍ متفوق لأتخرج من كلية الصحافة والإعلام، ومنّ الله علي أيضاً بأن أبقى زوجي شوكةً ورصاصةً مصوبة نحو جند العدو.

في تلك الأثناء، كان المخيم المدمر قد تم رفع الأنقاض من داخله، وتمَّت إعادة بناء منازله من جديد. في البداية أرادت خالتي أن تعود لسكنتها هناك في المنزل الذي حصلت عليه بدل منزلها المدمر، إلاّ أنها وجدت جدران غير تلك الجدران التي عرفتها، ووجدت رائحة أخرى غير رائحة المخيم التي اعتادت عليها، فعادت أدراجها مرة أخرى لتنوّر منزل ابنها إسماعيل، ولتساعدني في تربية أطفاله. أما أنا فلم أنتقل للسكن في البيت الذي حصلت عليه بدل منزل إسماعيل القديم الذي دمّر أثناء الاجتياح.

ولقد اتفقت مع إسماعيل بأن نحوّل بيتنا في المخيم إلى حضانة للأطفال، ولأنه كان صغيراً على أن يكفي لوحده لتلك المهمة، فقد أعطتنا خالتي أم عوض منزلها المجاور، فقمنا بفتح المنزلين أحدهما على الآخر، وبذلك أصبحت لدينا روضة لأطفال المخيم.

على الرغم من كل ما كان يشغل إسماعيل عن أعمال مقاومة، إلا أنه قام بإعداد يافطة وأرسل من يقوم بتركيبها فوق باب الروضة التي لم يكن لها اسمٌ بعد، إلاّ أن إسماعيل اختار لها الاسم من خلال ما خطه على تلك اليافطة، فقد كتب عليها «روضة النور والأمل»...

كانت روضتنا كذلك.. نوراً نضيء به درب الأطفال في مخيم جنين، وأملاً نزرعه في طريقهم لغدٍ أفضل... غد بلا احتلال وبلا دمار.. نور ابني وأمل ابنتي، والروضة منارتي التي كنت أديرها صباحاً أثناء وجود الأطفال بها كمديرة ومشرفة عليها، وكنت أستعمل منارتي تلك من خلال قيامي بكتابة المقالات الصحفية والتحقيقات الإخبارية، ونشرها عبر المواقع الإلكترونية والصحف... كنت قد أصبحت ابنةً للمعاناة، فأنا أم الطفلة الشهيدة نور، وصاحبة منزل أحاله الاحتلال إلى ركام، وأنا

أيضاً زوجة ذلك الأمير المقاوم إسماعيل.. إسماعيل المقاوم المطارد، وها أنا أعيش في مدينة جنين وأدرِّس الأطفال في روضتي داخل مجتمعها الجديد.

فمن المعاناة فقط يخلق الإبداع والتميز، فالذي عانى يكتب بصدق واصفاً معاناته ومعاناة من حوله، فكان المخيم وأحواله محور كل ما أكتب وأصف.

الحياة في المخيم تعني أن يكون الإنسان واضحاً وضوح الشمس، فلا أسرار هناك ولا أقنعة.. بلا قناع كنت أكتب مهاجمةً الفساد الذي بدأ يعود من جديد عندما خبت شعلة انتفاضة الأقصى، فقد عادت سلطة أوسلو لتمارس دورها القذر الذي كانت تمارسه قبل الانتفاضة دورها بإشاعة الفساد والإفساد، ودورها كوكيلٍ للاحتلال ينفذ بدلاً عنه أعمالاً قذرة في مطاردة المقاومين الذين قد عجز الاحتلال عن قتلهم أو اعتقالهم.

كانت سلطة أوسلو تمارس دور الوكيل الأمني لسلطات الاحتلال، فعاد زوجي ليصبح مرةً أخرى مطارداً لتلك السلطة وأجهزتها الأمنية.. تلك الأجهزة التي كانت تداهم منزلي بين الحين والآخر، لتعيث به فساداً وخراباً، كما سبق لها أن فعلت في منزلنا الذي كان بداخل المخيم قبل أن يدمّر.. ولم تكتفِ أجهزة أوسلو الأمنية بذلك فقامت بإغلاق روضة الأطفال.. روضة النور والأمل بحجة أنها روضة تملكها زوجة مقاوم.

أما قلمي، فقد تمّ كسره بعد أن منعت مقالاتي من أن ترى النور عبر الصحف المحلية بأمرٍ من وكلاء الاحتلال ولصوص الثورة، فكانت الشبكة العنكبوتية ملجئي الذي التجأت إليه لنشر وفضح ما كان يفعله وكلاء الاحتلال ضد المقاومة وأبناء عائلاتها، وفضح ممارسات الاحتلال أيضاً.

إلا أن ما كان يقوم به الاحتلال كان بالنسبة لي شيئاً مفهوماً فهو احتلال طاغٍ متجبر.. أما ما لم يكن مفهوماً هو ما كان يقوم به وكلاؤه الأمنيون من رجالات أوسلو، فأفعالهم القذرة من اعتقال للمقاومين وتعذيبهم وصولاً إلى استشهاد بعضهم على يد أولئك الوكلاء الأمنيين، ومن تضييق على كل من يمت للمقاومين بصلة، وصولاً إلى نشر وإقامة أوكارٍ للفساد والرذيلة.. كان كل ذلك غير مفهوم

بالنسبة لي، ففي البداية اعتبرته جهلاً أو غباءً، ثم ما لبث أن أصبح أقرب إلى اليقين بأن اعتبرت أن كل تلك الأفعال لا يعقل أن تصدر إلاّ من سلطة أمنية باعت نفسها وشرفها إرضاءً للمحتل اللعين.

ازداد التضييق، حتى أنني كنت أخشى الخروج من المنزل بسبب كثرة التهديدات التي كانت توجه لي بطرق شتى ومتعددة، فتارةً مكالمات هاتفية يهدد ويتوعّد من يقوم بها بقتلي وقتل أطفالي إن لم أتوقف عن الكتابة، وتارةً عن طريق رسائل إلكترونية تحمل المضمون ذاته، وتارةً عن طريق أقارب تعتقلهم أجهزة أمن السلطة وتفرج عنهم بعد أن تحمّلهم رسائل لي يقال بها أن الدور قادم علي بأن أعتقل لديهم وهذا ما حدث فعلاً.

فقد تم اعتقالي عدة مرات بعد أن دُوهم منزلي وحطّم أثاثه المحطم أصلاً بسبب المداهمات السابقة، كنت أعتقل من قبل أجهزة أمن السلطة ويزجّ بي لعدة أيام في زنزانة نتنة عفنة، وكنت أتعرض للإهانة والتحقيق، ثم كان يطلق سراحي بعد أن تتعالى الأصوات الحرة التي كانت تطالب بحرية الصحافة على الرغم من أن أجهزة أمن أوسلو كانت تسيطر على نقابة الصحفيين الفلسطينيين سيطرةً كاملةً، مما حوّل تلك النقابة إلى بوق يسبّح بحمد السلطة، نقابةً مطية لوكلاء أمن السلطة، فقد تحوّلت تلك النقابة من خلال مدير المخابرات توفيق الطيراوي ومن خلال ذلك الدمية التي وضعها لتكون نقيباً للصحفيين في فلسطين أداةً لقلب الحق وتحويله ظلماً مبيناً، ولتحويل الظلم إلى حق، تحوّلت تلك النقابة لتكون وسيلةً للتآمر على الصحفيين الأحرار الشرفاء، فقام نقيبها الدمية بالتشهير وتلويث سمعة كل صحفي يقول كلمةً للحق.

أما المقاومة، فكما هي عادتها دائماً فقد وقفت لتلك النقابة المسخ بالمرصاد، وأنشأت كتلة صحفية قوية ومباركة قامت بالتصدي للنقيب الدمية ولمدير المخابرات توفيق الطيراوي.. الذي أمر بملاحقة الصحفيين وزجّهم بالسجون، مما حوّل الضفة الغربية لمكان يصعب بل يستحيل على صحفيي المقاومة ممارسة عملهم به، إلاّ أن الله تعالى أعزّهم بمكانٍ آخر، مكانٍ مكّنهم من أن يكتبوا وينشروا

كتاباتهم الأدبية ومقالاتهم الصحفية، فكانت مدينة غزة منارةً لصحافة المقاومة وكان قطاع غزة المحاصر حاضناً للمقاومة بكافة أشكالها.

أما أنا، فما أن أطلقت أجهزة أمن أوسلو سراحي حتى وصلت إلى بيتي لأعانق أطفالي. وما هي إلاّ ساعات قليلة حتى تم اعتقالي مرة أخرى... إلاّ أن هذه المرة كانت القوات التي اعتقلتني قوات صهيونية على عكس المرات السابقة، فتم اقتيادي إلى أحد المعتقلات الصهيونية، وهناك في قبو التحقيق الذي كان يشابه لدرجة التطابق قبو التحقيق لدى أجهزة أمن السلطة... حقّق معي لعدة أسابيع ثم تم الحكم علي بالسجن لستة أشهر تحت قانون اسمه قانون الحكم الإداري... ستة أشهر خضت خلالها تجربةً جديدةً أضفتها لتجاربي السابقة.

هناك في الأسر بعيدةً عن زوجي المطارد، وبعيدةً عن أطفالي أمل ونور، وبعيدةً عن قبر ابنتي الشهيدة نور، وجدت ملاكاً في جسد إنسان، وجدت فتاةً فلسطينية مقاومة، فتاةً قد حكم عليها المحتل الصهيوني بستة عشر مؤبداً، فتاةً درست الصحافة والإعلام في جامعة بير زيت، وجدت الملا ك المقاوم أحلام التميمي... تلك الصحفية الفلسطينية التي عملت ضمن صفوف المقاومة الإسلامية المسلحة، فقاومت وأجادت فن المقاومة وفن تسديد الضربات الموجعة إلى صدر العدو.

ستة عشر مؤبداً، هذا كان حكمهم عليها، متوعدينها بأن تمضي كل حياتها في زنازين الأسر... إلاّ أن تلك الملاك القسامي كانت قد عزمت أمرها أن يكون الحكم حكم رب العباد وخالقهم، لا حكم العباد.... كانت موقنةً أنها وعلى الرغم من أنها صاحبة أعلى حكم حكمت به فتاة فلسطينية من أن الله سوف يمنّ عليها بالحرية... بالحرية والنصر والعزة على يد المقاومة الإسلامية من خلال رجالها القساميين الأطهار.

كانت تلك المقاومة تؤمن بما تقوله تماماً، ولدرجة جعلتني أثق بما تقول وأؤمن بما تؤمن به، حتى أنها وافقت تلك المقاومة على الارتباط بابن عم لها. وعقد قران الإثنان استعداداً للزواج.. كتب كتاب أحلام التميمي المحكوم علًيها بستة عشر

مؤبداً على ابن عمها الأسير الثائر الحر البطل نزار التميمي، الذي كان يمضي أعوام عمره خلف قضبان الأسر، فكلاهما كان أسيراً محكوماً بأحكام عالية، وكلاهما كان مؤمناً بأن الحرية قادمة والتحرر قريب، هذا ما كان كلاهما مؤمناً به، وهذا ما أصبحت أنا مؤمنةً به أيضاً، فطالما كانت المقاومة تحتوي على أولئك المقاومين والمقاومات الذين نذروا أرواحهم لواهب الأرواح، فالحرية والتحرير قادمان لا محالة، فالله بعون العبد ما دام العبد بعون أخيه.

هناك داخل زنازين الأسر التقيت بمن كانت لي بمثابة الأم والصدر الحنون الذي أبكي عليه، التقيت بالأسيرة المجاهدة والأم المقاومة أم عبد السلام أبو الهيجاء، وهي زوجة أسد وشيخ المقاومة في مخيم جنين وفلسطين الشيخ جمال أبو الهيجاء، ذلك المقاوم القسامي الذي فقد ذراعه في معركة مخيم جنين، وأصيب بالرصاص وأوشك على الاستشهاد، إلاّ أن الله كتب له النجاة، وكتب له الأسر أيضاً، فأسر شيخ جنين وأسد مخيمها البطل جمال أبو الهيجاء، وأسر عدد من أبنائه وبناته، وأسرت الأم الحنون أم عبد السلام.

تلك الأم القسامية التي كانت ترشدني وتدلّني طرق الصبر والجلد والتحدّي، فكانت أم عبد السلام وأحلام التميمي بلسماً لجراحي، تلك الجراح التي ما عادت لها وجود بعد أن التقيت بهما، بل أنني أذبح وتسحب روحي من داخل جسدي عندما انتهت الأشهر الستة واقترب موعد إطلاق سراحي، فقد تعلقت بهما أكثر بكثير مما تعلقت بالحرية... على رغم أنني طوال الأشهر الستة الماضية لم أسمع خبراً عن زوجي، إلاّ أنني كنت أعلم أنه بخير، فهو مع الله، ومن كان مع الله لا يخيب رجاؤه، ولم أسمع أو أرى أطفالي نور وأمل، إلاّ أنني كنت قد أودعتهم أمانةً عند جدتهم أم عوض، تلك الجدة التي ما كنت أعلم كيف لها أن تتحوّل من امرأة مصابة بمرض القلب، إلى امرأة أصبحت تداوي القلوب وتفيض بالحنان على أطفالي وأحفادها.

في اليوم المحدد للإفراج عني، ودّعت الملاك أحلام التميمي، وودعت الأم الحنون أم عبد السلام أبو الهيجاء.. ودعت أخواتي الأسيرات وأنا أبكي متألمة على فراقهن.. اقتادني السجانون إلى سيارة السجن، بل اقتادوني إلى الحرية، مطلقين

سراحي في جنين، فقد كانت تلك السيارة تسلك طريقاً آخر طريقاً لا يقل إيلاماً وقهراً عن الأسر، فقد سلكت سيارة السجن طريقها وصولاً إلى الجسر الحدودي، وهناك على الحدود ألقت بي مبعدةً إياي عن فلسطين وعن مخيم جنين... مبعدةً إياي عن أطفالي نور وأمل، وعن جثمان طفلتي نور.. هناك ألقت بي لأصبح مبعدةً إلى الأردن، وإلى عمّان.. وصلت حرةً نعم متألمةً لفراق تراب فلسطين نعم.. واثقةً أن النصر قادم.. نعم وألف نعم طالما كان هناك أم مثل أم عبد السلام أبو الهيجاء، وطالما هناك صحفيةً مقاومةً مثل الملاك أحلام التميمي، فإن النصر والتحرر قادمان بإذن الله تعالى.

وصلت إلى مدينة عمّان بصحبة أمي وأخي نجيب، وصلت بصحبة المهنئين خلال موكبٍ للسيارات انطلق من الجسر الحدودي وصولاً إلى منزل أمي، لم أكن أعلم أنني قد تحوّلت خلال فترة اعتقالي إلى رمزٍ من رموز حرية الفكر والصحافة، فقد كان تأثير الحملات الإعلامية التي قادتها المقاومة نصرةً لي قويةً وكبيرة، وقد كان للحركة الإسلامية في فلسطين دور كبير في تعرية الاحتلال اللاأخلاقي الذي اعتقلني لمجرد كوني صحفية وأبعدني خارج فلسطين أملاً منه بأن يحجب صوتي ويمنع قلمي من الكتابة، إلاّ أنني وجدت في عمان حركةً إسلامية طاهرةً زكية، وجدت الإخوان المسلمين الذين ساندوني ووقفوا إلى جانبي، فأنا فلسطينية صحيحة، ولكني أردنية، هذا أيضاً صحيح، فأنا أردنية من أصلٍ فلسطيني، ولقد كنت وما زلت أعتز بكوني أردنية وبكوني من أصل فلسطيني.

قبل أن أمضي ليلتي الأولى في الأردن، رنّ الهاتف ليوقظني مبشراً إياي بأن أطفالي وصلوا مع جدتهم من مخيم جنين، وأنهم قادمون في الطريق إلى عمّان، كان المتصل هو أختي فاطمة التي كانت قد أعدت ذلك بعد أن طلبت من أم عوض أن تأتي إلى عمان على عجل بصحبة أطفالي. فاطمة مع زوجها عبيدة نزلا إلى الجسر في الصباح الباكر، وها هما سوف يصلان إلى عمّان بعد أقل من ساعة واحدة بصحبة نور وأمل.

لبست ملابسي بسرعة كبيرة، وتوجّهت لدكانٍ قريب لأشتري الحلوى استعداداً لوصول أطفالي. اشتريت الكثير من الحلوى، بل اشتريت كل

الحلوى التي ملأت بها عدة أكياس كبيرة، ثم عدت إلى البيت لأعد طعام الإفطار، فوجدت أن أمي قد أعدت عدة أصنافٍ من الطعام استعداداً لوصول أحفادها.

وصل أولادي فعانقتهم مقبلةً إياهم، لم أكن أبكي كما كنت أظن، بل كنت أضحك مبتسمةً وكانوا هم أيضاً يضحكون، كانت ضحكاتنا تتعالى وتتصاعد أكثر وأكثر...

صحيح أن للحرية طعماً جميلاً رغم الإبعاد، إلاّ أن طعم معانقة أطفالي كان أجمل وأحلى من الحرية نفسها.

ما أن هدأت قليلاً بعد عناق أطفالي، حتى بدأت بإطعامهم ما أعدَّته لهم جدتهم، وبدأت أيضاً بالحديث مع خالتي أم عوض، وما هي إلا عدة دقائق حتى وجدت أن ابني نور يقول لي أريد أن أحدِّثكِ بأمر سري وعلى انفراد... ذلك الطفل كيف كبر هكذا دون أن ألاحظ ذلك، كبر وأصبح قادراً على أن يحفظ السر، وقادراً أن يطلب مني التحدث معه على انفراد!.

قلت له حسناً يا بطل، هيا إلى غرفتي لنتحدث لوحدنا ولتطلعني على سرك، قام عن كرسيه وغمز بعينيه لأخته أمل، فتبعتنا إلى غرفتي، فقلت له: ألم تقل لي أنك تريد أن تحدثني على انفراد؟ فأجاب قائلاً: نعم على إنفراد وبشكل سري يا أمي.. فأجبته قائلةً: وكيف يكون الانفراد وأنت قد أحضرت معك أختك أمل؟... فقال: بل قولي توأمي أمل، أنا وأمل يا أماه واحد لا اثنان، واحد لا يفترق جزءٌ منه عن الآخر، ولذلك فحضور أمل مهم لأنها تحمل معها الجزء الثاني من السر.

نزع نور حذاءه وأعطاني إياه، وقال أبي أبو نور يسلّم عليكِ كثيراً، لقد كان يأتي لزيارتنا بشكل سري، ولقد أحضر لي هذا الحذاء قبل سفري بساعات وطلب مني أن أرتديه وأن أعطيكِ إياه بعد أن أصل إلى عمّان.

وضعت الحذاء جانباً وقلت له هذا هو النصف الأول من السر، وما هو النصف الثاني يا بطل.. ظل نور صامتاً، فأجابت ابنتي أمل: النصف الثاني هنا... هنا قد تم تخبأته بداخل دميتي خذيها يا أمي، فهي أيضاً من والدي، وقد طلب مني أن أوصلها لكِ وبشكلٍ سري أيضاً.

كانت الدمية ثقيلةً بل ثقيلةً جداً، فعادةً ما تكون محشوّةً بقطن خفيف الوزن، أما هذه الدمية فقد كانت صلبة وثقيلة الوزن أيضاً.

قمت بتمزيق الدمية فوجدتها قد ملئت بالتراب.. لا شيء سوى التراب.. فقمت بالبحث داخل حذاء ابني نور فوجدت بداخله رسالتين مخبأتين، قرأت تلك الرسالتين الموجّهتين من قبل زوجي إسماعيل، فعلمت أنه بصحة جيدة، وأنه ما زال يواصل أعمال المقاومة، ولقد لاحظت أن الرقم الأخضر قد أصبح أكثر من أربعين، فأسعدني ذلك كثيراً، فهذا يعني بالنسبة لي أنه قد تمكّن من قتل أربعين صهيونياً محتلاً.. ولقد وجدت بنهاية الخطاب معنى وجود التراب داخل دمية أمل.. فقد كان ذلك التراب تراباً من قبر ابنتي الشهيدة نور.. وقد طلب مني إسماعيل أن أنثر ذلك التراب في حديثة منزل أمي وبين شجرها حتى تبقى رائحة المسك والعنبر، رائحة طفلتنا الشهيدة تملأ المكان.

حملت التراب وطلبت من أطفالي أمل ونور أن يساعداني بنثره في أرجاء حديقة المنزل، وما هي إلا ثوانٍ حتى كنت أمطار الخير تهطل من السماء لتروي الحديقة، ولتحوّل التراب إلى جزء لا يتجزّأ من تراب الحديقة، فاختلط التراب الجديد الذي أحضر من جوار قبر طفلتي نور مع تراب حديقة أمي القديم، فعادت لي ذكرياتي القديمة عبر ذلك التراب الجديد، وغسل ماء المطر عبر قطراته كل أحزاني التي كانت تملأ قلبي.

ما عدت حزينة، بل أصبحت أماً قوية.. ولقد تجلت قوتي وتعاظمت عندما كنت أزغرد وأزغرد تحت المطر المتساقط، مما جعل أمي وخالتي تخرجان بصحبة أختي فاطمة وكن هنّ أيضاً يزغردن بصوتٍ عالٍ.. صوت الفرحة والحرية واللقاء.

فرحة بعد غصة.. وغصة بعد فرحة

بعد عدة أسابيع على تحرّري من زنزانة الأسر الصهيوني استطعت تجاوز غصتي وعادت الفرحة لتدخل حياتي من جديد، ففي عمان لم تكن أجهزة أوسلو الأمنية تطاردني ولم تكن تستطيع مداهمة منزل أمي كما كانت تفعل هناك في جنين، وفي عمّان أيضاً لم يكن هناك جيش صهيوني يحتل المدينة، بل كانت مدينة وعاصمة عربية حرة، ولذلك كنت أنا أيضاً حرة.. فبعد أن قمت بوضع أبنائي في إحدى المدارس القريبة من منزل أمي، تمكّنت بمساعدة عبيدة زوج أختي فاطمة من إيجاد عمل في إحدى الوكالات الإخبارية التي تهتم بمتابعة الشأن الفلسطيني.

ما أن أكملت شهراً واحداً على تعييني، حتى أكملت تسيير شؤون حياتي، وكم كنت فرحةً وسعيدةً من تصرفات ليلى التي لم تعد ليدي بعد الآن، بل أصبحت الحاجة ليلى، نعم فقد ذهبت قبل عام مع زوجها ووالدتي لأداء فريضة الحج، فقد كانت تصرفات ليلى معي على أحسن ما يكون، وقد شجّعتني فقمت باستخراج رخصة لقيادة السيارات، ولقد قام أخي نجيب بشراء سيارة لي، فأصبحت أصطحب أولادي كل يوم إلى مدرستهم ثم أذهب إلى عملي.. ذلك العمل الذي واصلت من خلاله دوري في المقاومة من خلال كتابة المقالات الصحفية وصولاً إلى التقارير الإعلامية التي كنت أبثها عبر الشبكة العنبكوتية، فكانت تصل هناك إلى فلسطين، إلى جنين، حيث كان زوجي يتابعها ويقرأها، ولقد كنت على تواصلٍ مع زوجي من خلال رسائله السرية التي كانت تصلني بشكل منتظم.

كم كنت وما زلت فخورة بما قام به وبما سوف يقوم بعمله من أجل فلسطين.. وكم وصلتني منه رسائل تشير لكونه سعيداً فخوراً بما أقوم به على صعيد الإعلام المقاوم.

صليت الفجر، وبدأت أقرأ الآيات القرآنية كعادتي انتظاراً لطلوع الشمس؛ حتى أصلي صلاة الضحى، وأوقظ أطفالي كعادتي التي قد تجذّرت بي منذ أعوام طويلة، إلاّ أن اليوم لم يكن يوماً عادياً مثل سائر الأيام، فأثناء قراءتي للقرآن الكريم جاءني اتصال هاتفي من مدير المكتب الإعلامي الذي أعمل به، ولقد طلب مني الحضور فوراً لمتابعة أمر هامٍّ ألح عليه كثيراً، إلاّ أنني أجبته قائلةً ليس هناك أمر أهم من إيقاظ أطفالي وإطعامهم ثم إرسالهم إلى مدرستهم، فقد اشترطت عليك منذ اليوم الأول للعمل في وكالتك الإعلامية على أن الأولوية هي لأطفالي، وقد وافقت على ذلك الشرط، فأرجو المعذرة منك، فيجب علي أن أغلق السماعة الآن لأنني مضطرة لمتابعة شؤوني كأم، وسوف أكون بإذن الله تعالى في الوكالة الإعلامية في تمام الساعة الثامنة صباحاً كعادتي اليومية.

رغم إصراره وتكراره لكلمة أن الأمر طارئ، إلاّ أنني كنت حاسمةً قاطعة لكل محاولاته. أغلقت السماعة وأيقظت أطفالي فصلوا صلاة الضحى، وبدأت بإعداد طعام الإفطار لهم، بينما كانوا يعدون بأنفسهم للذهاب للمدرسة.. فقد كانت من عادة أطفالي أن يصلوا الفجر معي جماعةً، ولقد كان ابني نور يؤم الصلاة بنا أنا وأخته وجدتيه أم نجيب وأم عوض، وكانا يذهبان بعد ذلك إلى النوم مجدداً، أما أنا فكنت أقرأ القرآن ولا أنام، أما الجدتان فقد كانتا تعدان القهوة مباشرة بعد صلاة الفجر لتشرباها استعداداً ليوم جديد.. وكان يصعب علي إيقاظ أطفالي مرةً ثانية من أجل الاستعداد للمدرسة، ومن أجل صلاة الضحى، فيبدو أنهما كانا يستمتعان بتلك الفترة ما بين الصلاتين من خلال أحلامٍ جميلة كانا يقصانها علي أثناء إيصالي لهما للمدرسة.

ما أن تناولا الفطور حتى ودّع نور وأمل جدتهما وركبا السيارة معي، ما أن سرت بالسيارة بضعة أمتار حتى طلب مني نور إيقاف السيارة والتوقّف جانباً، سألته عن السبب، فقال لي لا أدري، إلا أن أمل طلبت مني نفس الطلب، فتوقفت جانباً بعد أن شعرت أن هناك أمراً جللاً قد أحس به أطفالي، وها أنا أيضاً أحس به معهما.

انقبض صدري فبدأت أقرأ القرآن وكانا طفلاي يرددان خلفي ما أقرأه من آيات.. وما هي إلا دقائق حتى رنّ جهاز هاتفي النقال، نظرت إليه وأنا ما أزال أقرأ القرآن فوجدت أن الرقم المتصل هو رقم فلسطيني، لم أكن أعرف صاحبه.. أجبت على الاتصال من خلال سماعة تكبير الصوت الموجود بسيارتي.. السلام عليكم... أم نور.. صوت رصاص.. صوت مدافع.. صوت رشاشات وقاذفات صواريخ.. السلام عليكم أم نور.. نور.. أمل.. أنا والدكم إسماعيل.. أنا محاصر في إحدى البنايات السكنية منذ عدة ساعات، أشعر أن منيّتي قد اقتربت، ولذلك أتصل بكم للمرة الأولى منذ أن أصبحت مطارداً، اتصلت بكم الآن مكان احتمائي قد كشف وما عاد للحيطة مكان.. صوت رصاص يتبعه صوت قاذفات صواريخ... أنا والله العظيم بخير حتى الآن، فادعوا لي لعلي أتمكن من الفرار.. أدعو لي الله لأنجو من بطش الاحتلال.. أحبكم.. يشهد الله أنني ما أحبُّ أحداً في هذه الدنيا قدر حبي لكم.. أنت يا نور كن رجلاً وأرعَ أمك وأختك أمل.. وأنتِ يا أمل كوني مثل أمكِ عنيدةً طيبةً ومقاومةً شجاعة.. كوني فلسطينية قلباً وقالباً.. أما أنتِ يا حبيبة العمر، أنتِ يا ماجدة كوني ماجدةً كما أنتِ.. فأنتِ حبيبتي وعمري وحياتي.. أنتِ زوجتي ورفيقة دربي.. كوني ماجدة.. كوني الماجدة التي أحب وأتمنى.. كوني أنتِ.. أنتِ حب عمري وقدري الذي لا مفر منه إلاّ إليه.. إلا إليه حبيبتي وأميرتي الحالمة.. أطفالي وأحبتي.. أمل.. أمل حياتي، ونور.. نور عيوني.. ما عدت أشعر أنني سوف أستشهد بل أشعر أن هناك غصةً كبيرةً ومحنةً قاسية يتبعها الأمل والنور.. يتبعها رؤيتكم أنتم جميعاً، متى؟ لا أدري، أين؟ لا أدري، كل ما أردته هو أنني قد أصبت برصاصة.. لا برصاصتين.. ما عدت أدري بكم رصاصة قد أصبت.. أحبكم والله العظيم أنني أحبكم.. سلموا لي على أمي، وخالتي.. ماجدة أستحلفكِ بالله أن تكوني الماجدة التي تحمل اللواء من بعدي.. صمت إسماعيل فقلت له وأنا أسمع صوت الرصاص: أحبك يا زوجي الذي كان لي الأب والأخ.. احبك يا من أهديتني القرآن الكريم، أحبك يا أبا نور، أحبك يا أبا أمل... تعالت أصوات

الرصاص والقذائف وانهالت من عيني الدموع، فبدأ ابني نور بالحديث.. والدي أحبك يا قدوتي التي أحلم أن أكون مثلها، أحبك وأقسم لك أنني سوف أكون بإذن الله نوراً تنير به المقاومة، وأمل أيضاً تحبك.. كانت أمل تتكلم مكررةً كلمة واحدة، لن تستشهد يا والدي، لن تستشهد فنور قد زارتني الليلة بالحلم، وقالت لي أنك قادم إلينا، وطلبت مني أن أقبلك نيابةً عنها، وها أنا أقبلك عبر الهاتف.. وسوف أقبلك بإذن الله تعالى عندما أراك، لن تستشهد الآن يا أبي بل سوف تبقى شوكةً في خاصرة الاحتلال.. أحبك، أمي تحبك وأخي نور يحبك وأختي الشهيدة نور تحبك.. نور قالت أنك لن تستشهد، وأنا أحبكم أيضاً يا أحبابي ماجدة نور أمل.. كلكم أحبكم.. نحبك.. أحبكم.. نحبك.. وصوت الرصاص ما يزال صوته يسمع مرافقاً لصوت المدافع، لم أعد أستطيع سماع صوت زوجي إسماعيل.. إلاّ أنني أسمع صوت المدافع، ما عدت أسمع صوت أي شيء.. لقد قطع الاتصال.

بقيت أنتظر مع أطفالي في السيارة على أمل أن يعاود إسماعيل الاتصال بنا، إلاّ أنه لم يتصل، بل أن المتصل هذه المرة كان مدير المكتب الإعلامي الذي أعمل به، لم يكن صوته قوياً كما اعتدت عليه، بل كان صوتاً حزيناً... صوتاً أجزم أنه باكٍ.. قال لي: أين أنتِ يا ابنتي ماجدة.. أجبته قائلةً: أنا بين السماء والأرض.. أنا أدعو الله بأن يسلم زوجي.. وأنا أيضاً أدعو الله أن ينجي زوجكِ، فعندما اتصلت بكما بعد صلاة فجر اليوم، أردت منكِ الحضور لأن خبر حصار زوجكِ كان قد بدأ بالظهور عبر المواقع الإلكترونية التي تصفحتها فجر اليوم... أنا يا ابنتي أم نور أشاهد الآن أن قوات الاحتلال الصهيوني قد اقتحمت البناية السكنية التي كان بها زوجكِ، وهي بناية قيد الإنشاء تقع في إحدى ضواحي مدينة خليل الرحمن.

أثناء حديث مدير المكتب الصحفي قمت بفتح جهاز الحاسوب النقال، وبدأت أشاهد بأم عيني ما كان يصف إليَّ، شاهدت العشرات من الجنود المدججين بالسلاح يدخلون الواحد تلو الآخر مقتحمين البناية التي كانت قد

أصبحت آيلة للسقوط من كثرة ما تلقته جدرانها من قذائف مدفعية ورصاص الرشاشات الآلية.. كنت أشاهد ذلك وأنا ما زلت أجلس مع أطفالي بداخل السيارة، وكان أطفالي يشاهدون ويدعون الله تعالى بأن ينجي والدهم.. كنا نشاهد والدموع تنهمر من عيوننا والدعاء يصعد من أفواهنا ويتعالى من حناجرنا.

بجوار سيارتي توقفت سيارة ليلى، فقد كانت هي الأخرى في طريقها لإيصال أولادها إلى المدرسة، توقفت وترجلت من سيارتها بعد أن أدركت أن هناك أمراً جللاً قد حدث، فيبدو أنها شاهدت أطفالي وهم يبكون... فتحت باب السيارة المجاور للكرسي الذي كنت أجلس عليه، ورأت جهاز الحاسوب، وشاهدت الدمار وشاهدت اسم أخيها إسماعيل مكتوباً تحت كلمة خبر عاجل.. استشهاد المقاوم إسماعيل أبو نور.. شاهدت ذلك الخبر، وأنا شاهدت سقوطها أرضاً مغمياً عليها من شدة الصدمة.

ألقيت بالحاسوب جانباً ألقيت بحزني وخوفي جانباً أيضاً، وقمت برفعها بمساعدة الأطفال ووضعتها بالكرسي الخلفي لسيارتي وانطلقنا عائدين إلى منزلنا الذي لم يكن يبعد سوى أمتار قليلة إلاّ أنني أحسست تلك الأمتار القليلة أطول من المسافة من عمان إلى مخيم جنين.

وصلنا إلى البيت، ووصل خبر الإغماء على ليلى قبلنا من خلال ابنها الصغير الذي ترك السيارة مسرعاً لاستدعاء والده. على الرغم من أن ليلى تكبرني بأكثر من عشرين عاماً إلاّ أنها كانت قد أنجبت ولداً بعد أن أنجبت أنا ولدي نور وابنتي أمل، وعندما سألتها عن السبب قالت لقد كبر أولادي ودخلوا الجامعات، وأردت أن أنجب طفلاً أو طفلة لكي أتسلى معه... ذلك الطفل أوصل الخبر لكل من كانوا في عمارة والدي، فنزل أخواني كلهم وأمي وخالتي.. نزلوا ليطمئنوا على ليلى، ولم يكن أياً منهم يدري ما الذي قد حدث، وما زال يحدث مع زوجي إسماعيل.

تركتهم وأسرعت إلى الصالة لأشاهد التلفاز، وأقلّب بين المحطات الإخبارية.. تلك تقول أنه قد استشهد، والأخرى تقول أنه أصيب بعدة طلقات نارية، ونقل

على إثرها إلى أحد المشافي، أما أنا ما عدت أرى حول البناية المستهدفة جنوداً، بل أصبحت أرى جرافةً ذات فك كبير تساندها جرافة ذات فك مدبب وكانتا قد باشرتا في هدم البناية، وما هي إلا ساعة واحدة حتى تحوّلت بعدها تلك البناية إلى كومةٍ من حجار.

خلال تلك الساعة كان كل أهلي قد دروا بما حدث مع إسماعيل، فكانت سميرة أخته تبكي، وأمه أم عوض تحضن أطفالي وتقول لهم أنا أصدقكم فأبوكم لم يستشهد بعد، فلو أنه قد استشهد لكنت قد أحسست بذلك، أبوكم قد يكون مصاباً متألماً فأنا أحسّ بألم جراحه داخل جسمي... أصدقكم يا أبناء أبي النور.. أبوكم لم يستشهد بعد...

لقد صدقت رؤى إبنتي أمل، ولم يستشهد أبوها بل أصيب ونزف الكثير من الدماء، إلاّ أنه تمكّن بعون الله من النجاة وكتبت له حياة جديدة.

هذا ما علمته بعد عدة ساعات، فقد اتصل بي مدير المكتب الإخباري ليقول لي بشكلٍ مؤكد أن زوجي موجود بإحدى المشافي، وهو يخضع الآن لعملية جراحية.. بعد عدة أيام أمضيتها في الصلاة والدعاء وصلني خبر آخر من مديري يقول به أنه قد تمّ نقل زوجي إلى أحد مراكز التحقيق.

رغم إصابته الخطيرة إلاّ أنه يخضع للتحقيق المكثف، مرّت أيام وأسابيع وعدة أشهر، قبل أن ينتهي التحقيق مع إسماعيل وينقل بعدها إلى زنازين السجن.

ولقد كنت أتواصل معه عن طريق المحامين، وكانت أخباره بحمد الله تتحسن مع تحسن صحته، فقد استرد إسماعيل عافيته بعد نحو عامٍ من الاعتقال على الرغم من أن إحدى الشظايا ما تزال داخل جسمه.

من الأسر كانت تصلني رسائله عبر المحامين تارةً وعبر منظمة الصليب الأحمر تارةً أخرى، وكانت تلك الرسائل تحمل أحلى الكلام وأكبر المعنويات والتفاؤل بأن الفرج قريب... بل وأقرب من قريب مما جعلني أيضاً أتفاءل بأن الفرج عن زوجي وعن الأسرى سوف يكون قريباً.

على الرغم من أن القضاة العسكريين الصهاينة قد طالبوا بأن يحكم زوجي

بعدة عشرات من المؤبدات إلاّ أن إسماعيل كان يردد: حكم الله لا حكم البشر.. حكم الله لا حكم البشر. هو الفيصل بيننا.. ولقد استمد زوجي ذلك التفاؤل بقرب الفرج من الله عزَّ وجلَّ أولاً، ومن رجال المقاومة ثانياً، تلك المقاومة التي كانت قد تمكّنت من أسر جندي صهيوني من قلب دبابته.

كانت الأعوام تمضي وكان أطفالي يكبرون وكان يكبر معهم إيمانهم بأن الفرج قد اقترب، وبأن الحرية قادمة لأبيهم وللأسرى. أما أنا فلقد كنت أتابع كل الأخبار التي ترد إلى المكتب الإعلامي الذي ما زلت أعمل به منذ عدة أعوام، تلك الأخبار سرعان ما تأتي أخباراً أخرى تقول أن المفاوضات ما تزال بعيدة عن تحقيق مطالب المقاومة، تلك الأخبار كانت متناقضة إلاّ أن إسماعيل كان يؤكد لي دوماً أن الفرج قد اقترب وأن النصر قادم.

كان يكتب في رسائله لقد ذهب الكثير ولم يبقَ سوى القليل.. تفاءلي بالخير حبيبتي وسوف تجدينه بإذن الله، لن يتم إطلاق سراحي بداخل الأراضي الفلسطينية المحتلة، بل سوف يتم إبعادي إلى خارج فلسطين، إلى أين لا أدري تحديداً، قد تكون وجهة الإبعاد إلى تركيا أو إلى عمّان أو قطر.. أما إلى مخيم جنين فلا أظن أن ذلك سوف يحدث.

أحبك كل يوم أكثر من اليوم الذي سبقه، أحبك يا ماجدة، أحبكم كلكم، وأدعو الله بأن ألقاكم في القريب العاجل...

كانت تلك كلماته التي يكتبها إلي، وكنت أقرؤها المرة تلو المرة، وكنت أكتب له الكثير من الرسائل التي يرد عليها بأن يكتب لي أكثر منها، مما جعلنا نعود لتلك الأيام التي كنا خلالها تحت الحصار في مخيم جنين، حيث كنا قد أصبح أحدنا قريب من الآخر، مما جعلني أفهمه جيداً، وأتعرف عليه عن قرب، فالأزمات تولد التقارب بين الأحبة، والتقارب يولد المحبة، ولأننا كنا قد تعرضنا سوياً لعدة أزمات، فقد أصبحنا رغم بعدنا عن بعضنا البعض بسبب الحواجز والحدود وأسوار السجن، أقرب ما يمكن أن يكون، فقد أدت بنا هذه المحنة الأخيرة من أن نكون جسدين اثنين بروحٍ واحدة.

وجعلت نوراً وأمل جزءاً من تلك الروح، لقد كان أمل ونور يقومان بالاتصال على إحدى المحطات الإذاعية المختصة بشؤون الأسرى الفلسطينيين؛ ليوصلا عبرها صوتيهما إلى والدهما، وكنت أشاركهما بالتحدث عبر تلك الإذاعة التي كان إسماعيل يستمع إليها عبر المذياع داخل زنزانة سجنه.

كانت الأيام يطوي بعضها بعضاً، وكنا نطوي آلامنا مع تلك الأيام منتظرين فرج الله، منتظرين تحرير أبي نور.

كنت إذا ما شعرت بالوحدة أعود إلى دفتر مذكراتي القديم لأقرأ ما به من جمل وسطور، وكنت أمسك قلمي لكن ليس لكتابة مذكراتي، فقد توقفت عن فعل ذلك منذ أعوام، منذ أن طلب مني إسماعيل أن أكتم سري داخل قلبي منذ أن أصبحت ذكرياتي بلا حبر وورق.

كنت أمسك القلم لأكتب لزوجي عن كل ما يجول بخاطري، أكتب بحذر شديد؛ لأنني أعلم أن رسائلي سوف تقرأ من قبل السجانين داخل المعتقل.

وكنت أمسك بالقلم لأكتب مقالتي اليومية التي كانت تنشر هناك في قطاع غزة في صحيفة فلسطين، تلك الصحيفة التي فتحت لي أبوابها لأكتب بلا قيد أو شرط، بعد أن أغلقت صحف الضفة الغربية أبوابها بوجهي بأمرٍ من وكلاء أمن الاحتلال، بأمرٍ من أجهزة أمن أوسلو وسلطتها المهزومة المتهالكة.

كنت أكتب عن كل ما كان يجول بخاطري، فأنا أم لطفلة شهيدة، أكتب عن الشهداء وأمهاتهم.. وأنا زوجة مقاوم أسير.. أكتب عن معاناة الأسر ومعاناة زوجي، تلك المعاناة التي كنت قد عايشتها لمدة ستة أشهر.

وكنت أكتب عن الفساد الذي كانت تصلني أخباره من خلال صديقاتي اللواتي درسن معي بالجامعة ومن خلال نساء مخيم جنين، فقد كانت أخبار الفساد والمفسدين تصل وبسرعة كبيرة رغم أنف أجهزة أمن أوسلو، وكنت أقوم بنشرها والتعليق على ما جاء بها... وكنت أدير حلقاتٍ للمناقشة والحوار من خلال مواقع التواصل الاجتماعي عبر الشبكة العنكبوتية.

أما نور وأمل، فقد كانا يشاركانني في تلك المناقشات والحوارات، فقد كبرا

وتجاوزت أعمارهما التسع سنوات.. تسعة أعوام أمضياها محرومين من أمهما لأشهر ستة، ثم أتبعوها محرومين من أبيهم لأعوامٍ عديدة..أعوام قد طالت وطالت حتى أنني ما عدت أعدها وأحسب أيامها.

من جديد، توالت الأخبار عن اقتراب موعد إطلاق سراح نحو ألف أسير، ففرحت ولكن سرعان ما زالت فرحتي بزوال ذلك الخبر، وورود خبر آخر يفيد بأن المفاوضات قد تعطّلت وتوقّفت من جديد إلى أجل غير معلوم.

ذاكرة الأرقام والأعداد

اليوم هو اليوم الأول للشهر السادس لعام ألفين واثني عشر... 1/ 6/2012، واليوم أيضاً مضت من سنوات عمري ثلاثون عاماً.. ففي مثل هذا اليوم قبل اثني عشر عاماً كنت قد اجتزت الجسر الحدودي عبوراً إلى فلسطين.. هناك فقدت طفلتي الأولى نور، وهنا في عمّان أصبح عمر الطفلين التوأمين نور وأمل عشرة أعوام.. كم كنت ساذجة عندما تمنيت لو أن الأعوام تمر بسرعة.. ولو أنني بمجرد أن أغمض عينيي لو كانت أعواماً عشرة قد مرّت.. ذلك ما كنت أتمناه عندما كان عمري ما يزال ثمانية عشر عاماً.. أما اليوم وبعد مرور اثني عشر عاماً، أتمنى لو أن ساعة الزمن تتوقف وتقف معها الأرقام والأعداد، فكل يوم يمضي يحسب علي وأنا وحيدة مع أطفالي وبلا زوجي الذي أصيب.. كل يوم يمضي أشعر أن المسؤولية قد أصبحت أكبر وأكبر على عاتقي... فأطفالي كبروا قبل أوانهم، وأصبحوا يدركون أموراً لم أكن أدركها أو أدري عنها عندما كنت ابنة ثمانية عشر عاماً.

أما أنا ابنة الثلاثين عاماً، أصبحت أشعر أنني تجاوزت الستين، بل تجاوزت المائة وأكثر، فالمصائب والمحن تجعل الإنسان يقفز فوق أعوام العمر بسرعة كبيرة بسرعة لا يمكن إيقافها أو التحكم بها أبداً.

مع مضي الأعوام، شعرت أنني ما عدت أرغب بأن أكون صحفية تكتب وتحلل الأخبار والأنباء، شعرت أنني يجب أن أعود لأكون جزءاً من تلك الأخبار، أكون مؤثرةً وصانعةً للحدث والقرار.

ولذلك، تركت عملي في المكتب الإعلامي، وقمت بتأسيس جمعية لرعاية شؤون المرأة وتعزيز دورها، أسميت تلك الجمعية على اسم أبنائي التوأم: جمعية النور والأمل، لم يكن دافعي من وراء تلك الجمعية هو تمضية وقت الفراغ وكسر الملل

والروتين، فلم يكن عندي وقت فراغ، بل على العكس كل وقتي كان مشغولاً ومليئاً بالأمور المهمة، مما جعلني لا أشعر بالملل أو الروتين، وإنما أنشأت تلك الجمعية لكي أتصدى لعدد من الجمعيات النسائية التي أصبحت تملأ الأراضي الفلسطينية في الداخل وتملأ مخيمات اللجوء الفلسطيني في دول الشتات العربي.

تلك الجمعيات التي تسوق للباطل تحت أسماءٍ يخالها المرء عندما يسمعها بأنها أسماء تنم عن حقيقة مسماها.. الدفاع عن حقوق المرأة.. المساواة الكاملة مع الرجل... لا للزواج المبكر.. نعم لحرية العلاقة بين الجنسين.. تلك الشعارات البرّاقة التي تخفي تحتها شياطين مستترة بشياطين، كبرت وتكاثرت حتى باتت قوية ولها منابر إعلام وجمعيات وهمية تسوّق لأفكارها بإدعاء التقدم والحضارة والرقي، يدعون أن الإسلام غبي ومتخلف، والإسلام أشرف وأعلى مما يدعون، فالإسلام هو الدين السماوي الذي أعطى المرأة حكماً إلهياً بأن تكون معززة مكرمة.

يدعون أنهم يدافعون عن حقوق المرأة، وهم في حقيقة الأمر يريدون سلبها حقيقتها في أن تكون امرأة، يريدونها أن تكون عبدةً لدور عرض الأزياء ولشركات مستحضرات التجميل والعطور، يريدون من المرأة أن تكون سلعة رخيصة تسوّق لهم عبر جسدها العاري منتجاتهم الكمالية، ويريدون منها أن تلغي النقاب والحجاب.. لتخرج سافرةً كاشفةً عن مفاتنها متطيبةً بالروائح العطرية التي تثير الشهوات وتشيع الفتن.

يطالبون عبر جمعياتهم المولة من قبل أعداء أمة محمد عليه الصلاة والسلام أن تتوقف الفلسطينية عن الإنجاب، وأن يتأخر سن الزواج تحت حججٍ واهية، وادعاءات كاذبة لا يقصد بها سوى القضاء على الفلسطينيين وتقليص عددهم سواء في فلسطين أو في مخيمات اللجوء.. فأصبحت تلك الجمعيات تروّج وتوزع حبوب منع الحمل على نساء المخيمات الفلسطينية، وعلى نساء فلسطين، كيف لفلسطين أن تتوقف عن الإنجاب وأن تكتفي بولدٍ واحد أو اثنين على الأكثر كما يروّجون، وتلك الأم الفلسطينية هي أم لشهيد وأم لأسير وأم لمطارد وأم لمبعد طريد... وأم لابن أو ابنة اضطرت لترك فلسطين بحثاً عن الرزق ولقمة الخبز...

تلك الجمعيات الفاسدة تسعى لإفساد المجتمع الفلسطيني، وقد بدأت تحصد ثمار هذا النجاح وخاصةً هناك في الضفة الغربية.

فبعد أن كانت نسبة الطلاق في فلسطين هي الأقل على المستوى العربي والإسلامي، وبعد أن كانت نسبة العنوسة بين شابات وشبان فلسطين هي الأقل إسلامياً وعربياً، بدأت تلك النسب في الأعوام القليلة الماضية ترتفع وبشكل ملحوظ، نتيجة تأثيرات تلك الجمعيات الفاسدة التي أصبحت مثل السرطان اللعين الذي استوطن داخل جسد المجتمع الفلسطيني لكي يقضي عليه... فالخصوبة تهدم من الداخل بفعل المفسدين الذين يتسلّلون إليها بعد أن يكونوا قد عجزوا عن هدمها من الخارج.

أما ما يثير العجب والسخرية، هو أن الصهاينة يفعلون تماماً عكس ما تروّج له تلك الجمعيات التي امتلأت بها مدن الضفة الغربية والمخيمات الفلسطينية، فنجد أن الجمعيات تروّج لتحديد عدد المواليد وتخفيض النسل، في حين أن الصهاينة ينجبون الأطفال بلا قيد ولا شرط، فلا نجد أحداً في مدنهم يجرؤ على الترويج لتحديد النسل، بل العكس هو الذي يروّج له، فقد وجدت نائبةً صهيونيةً ما زالت في الثلاثينات من عمرها ولقد أنجبت ثمانية أطفال وهي ما تزال تسعى إلى إنجاب المزيد من الأطفال، ووجدت أن كثيراً من ساسة المجتمع الصهيوني قد أنجبوا سبعة وتسعة أطفال، والأغرب أنهم يتباهون بذلك، ويروّجون له متفاخرين بكونهم قادرين على إنجاب مثل هذا العدد من الأطفال.

تلك النائبة الصهيونية أم الأطفال الثمانية تعيش وتحيا فوق أرض فلسطينية مصادرة، أقيمت عليها مستوطنة اغتصابية يسكنها اليهود الروس، ولقد قامت تلك النائبة الصهيونية بتقديم عدة مشاريع للبرلمان الصهيوني من أجل منع صوت الأذان من أن يصدر عبر المساجد في القرى المجاورة للمستوطنة التي تسكن بها وفي كافة الأراضي الفلسطينية.

وهي تسعى إلى إقرار قانون يمنع الأذان، وأظن أن القانون قادم ما دامت أمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام نائمة متخاذلة تلهف إلى إرضاء الغرب الكافر

من خلال تسهيل عمل جمعياته التي أعدادها أضعاف مضاعفة بسبب تخاذل حكام الأمة وقادتها وسعيهم إلى الحصول على صوت الحكام العصريين المتطورين.

وهناك نائب صهيوني آخر وهو أب لعدد كبير من الأطفال، قام بتقديم مشروع للبرلمان الصهيوني لجعل تعليم الأطفال بداخل الحضانات ورياض الأطفال والروضات مجاناً، وقد نجح بذلك، مما مكّن الأم الصهيونية من أن تضع طفلها بالحضانة وهو ما يزال يرضع بشكل مجاني بالكامل.

وهذا طبعاً يشجّع تلك الأمهات على الإنجاب والإنجاب ما دامت لا تتحمل تكاليف التعليم والرعاية الطبية، بل على العكس فهي تحصل على المال من قبل الحكومة الصهيونية تشجيعاً لها على كثرة عدد أطفالها.

أما المدارس الدينية هناك في الكيان الصهيوني المحتل، فهي تلقى كامل الرعاية والاهتمام من الحكومة، بل أن الطلبة الذين يدرسون بتلك المدارس يتلقّون رواتب شهرية مجزية جداً، وبمجرد أن يتزوج الطالب والطالبة الذين يدرسون بتلك المدارس الدينية، فإنهم يحصلون على ضعف ما كانوا يتلقونه من راتب مالي في السابق... ويبدأ الراتب بالزيادة والتصاعد كلما تزايد عدد الأطفال الذين ينجبونهم، وغالبية الطلبة الدارسون ينجبون ما بين الخمس والعشر أطفال على الأقل... وهم لا يعملون أبداً وإنما يمضون حياتهم بالذهاب إلى المدرسة الدينية لدراسة علوم الدين.

نعم، لا يعملون، ويتزوجون وهم صغار السن وينجبون وينجبون، هذا ما يحرصون عليه، هذا ما يروّجون له، على عكس جمعيات الدفاع عن حقوق المرأة لدينا في فلسطين وفي مخيمات اللجوء الفلسطيني، فلا يحق للمرأة الفلسطينية أن تنجب أكثر من طفل أو اثنين، وإن أنجبت فتلك الجمعيات تصفها بأنها امرأة متخلفة، وإن تزوجت بعد أن تبلغ سن الثامنة عشرة يصفونها بأنها رجعية وغير عصرية.

هل تجرؤ تلك الجمعيات الغربية التي سرطنت مجتمعنا الفلسطيني على أن تقول ذلك للصهاينة؟ لا، والله لا تجرؤ، ولا تستطيع، فتلك الجمعيات الغربية أداة بيد الصهاينة من أجل تجديد التهديد الديموغرافي المتمثل بكون الفلسطينيين يتكاثرون وينجبون أكثر من الصهاينة. أما الآن فقد تباهى رئيس حكومة الكيان

الصهيوني أمام أحد الحكام الأوروبيين قائلاً له أنه استطاع أن يجعل الصهاينة ينجبون أكثر من الفلسطينيين المسلمين داخل فلسطين، وأردف قائلاً لذلك الحاكم الأوروبي كيف لا تستطيعون كبح جماح المسلمين عندكم، كيف تتركون لهم حرية الإنجاب والتكاثر، ألا تخافوا بأن يصبح المسلمون أكثرية في أوروبا، وتمادى رئيس الحكومة الصهيونية بأنه قال كيف تسمحون للمسلمين بأن يقيموا مدارس إسلامية، مدارس تعليم دين الإرهاب والقتل؟!.

لم يكن إصدار فرنسا وعدد من حكومات أوروبا لقوانين تمنع ارتداء النقاب، وتعاقب كل من ترتديه سوى جزءً من تلك الهجمة الصهيونية التي تهدف لمحاربة الإسلام، فقد كانت وسائل الإعلام التي يمتلكها صهاينة هي عامل التحريض الأول ضد المسلمين في دول الغرب.

أما المثير للاستغراب هو أن هناك نساء صهيونيات يرتدين ملابس تحجب رؤية أي شيء من جسمهن، فتلك الملابس تحجب رؤية العينين أيضاً، فهنّ يستعملن نقاباً مغلباً فلا تُرى أعينهم من خلاله، ويلبسن القفازات السوداء والملابس الفضفاضة.

أما النساء الصهيونيات الأقل تديناً فإنهنَّ يرتدين غطاء الرأس حاجبات شعرهن، ويرتدين الملابس الطويلة والفضفاضة أيضاً. هل تجرؤ تلك الجمعيات الغربية التي تدّعي الدفاع عن حقوق المرأة بأن تنقد ما ترتدينه تلك النسوة الصهاينة؟ لا ورب الكعبة لا تجرؤ تلك الجمعيات السرطانية الغربية على انتقاد الصهاينة أبداً.

ولذلك قمت بإنشاء جمعية النور والأمل، وجعلت مقرها في أحد المخيمات الفلسطينية في مدينة عمّان؛ لأحدث الفتيات والنساء على التصدي للدعاية المغرضة التي تروجها جمعيات الفساد الأوروبية، فلتنجب الأم الفلسطينية قدر ما تشاء من الأطفال ما دامت قادرةً على تربيتهم وتنشئتهم نشأةً دينية صالحة، وما دامت قادرة على تعليمهم وتثقيفهم كما تعلمت هي في المدارس والجامعات.

ولتتزوج الفتاة ما دامت بلغت الثامنة عشرة بعد أن تكون قد أنهت دراستها

المدرسية، إذا ما أرادت ذلك، فلتتزوج إذا ما تقدم لخطبتها من تجد به أخلاق الشاب المسلم الملتزم، الشاب الذي يكرمها ويقدم لها العون بأن تدرس وتتعلم وتصل إلى أعلى المراتب وتحصل على أفضل الشهادات.

وإن لم ترد الفتاة الزواج بذلك العمر، فلها مطلق الحرية بأن تواصل درب العلم في الجامعات والمعاهد، لتنتقل إلى العمل بعد ذلك.. إلى العمل الذي يكون تحت ضوابط وأحكام الدين الإسلامي، وتحت مظلة العزة والكرامة التي تكفل للفتاة أو المرأة العاملة كامل حقوقها بل وتكفل لها بأن تتميز على الرجل أيضاً.. فالنساء قوارير ورفقاً بالقوارير، ولذلك يجب أن تكون المرأة حرة القرار والاختيار ما دامت قراراتها ضمن الضوابط الدينية الإسلامية السمحة.

عندما قمت بإنشاء تلك الجمعية، فضّلت أن أضع على كرسي رئاسة تلك الجمعية «ليلى» فليلى هي مثال للفلسطينية التي ولدت بمخيم اللجوء، وهو مخيم جنين، ثم حضرت إلى الأردن لتتزوج وهي بعمر الثامنة عشرة، حضرت فقيرة معدمة، حضرت وهي تضع ملابسها بداخل حقيبة صنعت من كيسٍ للطحين.. ذلك الطحين الذين توزعه وكالة شؤون اللاجئين، ثم تزوجت بأخي الطبيب وهو ابن خالتها مما مكّنها من أن تدرس بالجامعة، ولتتخرج أستاذةً في علم الاجتماع، صحيح أنني كنت أعتبرها متغطرسة ومتكبرة، إلاّ أنها بعد أن كبرت في العمر أدركت أن الرجوع للحق فضيلة، فألقت زينة الدنيا الزائفة وراء ظهرها واتجهت نحو التدين، فعرفت من خلال الدين الراحة والاستقرار.

ليلى فلسطينية نموذجية، وهي أقدر على إدارة كرسي رئاسة جمعية النور والأمل، ما أن عرضت ذلك على ليلى حتى رفضت وبشدة قبول هذا العرض، ورغم محاولاتي معها إلاّ أنها أصرت على رفضها لعرضي ورشّحت لي أن تكون أختي فاطمة هي مديرة الجمعية، إلاّ أن فاطمة رفضت أيضاً مما جعل ليلى تعدل عن رفضها وتوافق على أن ترأس الجمعية، أما فاطمة فقد أصبحت نائبة المديرة، ولقد عملت أنا وسميرة معهما في الجمعية كمساعدتين لهما.

صحيح أن فكرة إنشاء الجمعية هي فكرتي أنا الماجدة كما أسماني زوجي، إلاّ

أنني أحب العمل الجماعي، وأعشق العصف الفكري المستنير، العصف القائم على تطبيق أفكار خلاقة تجد الحلول العملية للمشاكل.. ذلك العصف الفكري الذي يبتعد عن التنظير والتهويل، ولقد كان أول ما توصلنا إليه هو أن نقيم صندوقاً أسميناه صندوق العلم والإيمان.

ذلك الصندوق كانت له مهمتان رئيستان، أولهما جمع المال من سيدات الأعمال ومن أصحاب رؤوس الأموال سواء في عمّان أو من أماكن تواجد الفلسطينيين المغتربين، ولقد كان أخوتي الثلاثة: نجيب وإبراهيم وناصر من أول المساهمين، بل ومن أكبرهم حتى الآن، أما المهمة الثانية فقد كانت البحث عن الفتيات اللواتي أكملن دراستهنَّ الثانوية، ولم يستطعن الالتحاق بالجامعات والمعاهد بسبب عدم قدرة ذويهم على دفع الرسوم الجامعية ومصاريف الدراسة والتنقل.

فكنا نبحث في المخيمات لنجد من هنّ بحاجة لتلك المساعدة التي كانت تتضمن حزمةً كاملةً متكاملة، بحيث أننا كنا ندفع الرسوم الجامعية، ثم توفير مصروف شهري يعطى كمصاريف للتنقل والطعام والكتب الجامعية، وكنا أيضاً نقوم بإعطاء الطالبات منحةً ماليةً إضافية كل ثلاثة أشهر من أجل أن يشترين ما يرغبن به من ملابس وأحذية وحقائب، مما كان يجعل تلك الفتيات يشعرن بأنهنَّ يدرسن بالجامعات مثلهم مثل الفتيات المقتدرات تماماً.

لقد كان تحملنا لذلك العون المالي الكامل المتكامل يجعل الطالبة مرتاحة، ويجعل أهلها أيضاً مرتاحين فهم يعلمون أن ابنتهم بعد أن تكمل دراستها سوف تكون فتاةً قويةً قادرةً على العمل إن أرادت، وسوف تكون عندها فرصة أفضل للزواج برجلٍ متعلم مثلها.

عندما كان أهل الفتيات يسألوننا عن الشروط اللازمة للحصول على تلك المنحة، كنا نقول هناك شرط واحد فقط لا غير، وهو أن تحافظوا أنتم بداخل المنزل على جوّ عائلي هادئ يتيح لابنتكم الطالبة الهدوء من أجل التفوّق.

كانوا في البداية يسخرون من ذلك الشرط، إلاّ أنهم بعد ذلك أدركوا أن شرطنا كان شرطاً صعباً نوعاً ما، وخاصة أن غالبية تلك العائلات الحاصلة على القروض

هي عائلات فقيرة تعيش في المخيمات مما يجعل توفير جو هادئ بداخل المنزل أمراً صعباً، إلا أنهم كانوا يحاولون.. وكانوا بفضل الله ينجحون في غالب الأحيان.

أما الفتيات، فقد كنا نقول لهن أن شرطنا لكن هو التفوّق والاجتهاد في تحصيل العلم.. فالعلم نور ونحن جمعية النور والأمل، نورنا لكم هو العلم الذي نساعدكم على تحقيقه، وأملنا لَكنَّ هي الوظائف التي سوف نسعى إلى توفيرها لكنَّ إن استطعنا بعون الله عزَّ وجلَّ.

أما عملنا مع تلك الطالبات فلم يكن محصوراً بالجانب المالي الذي تقدمه فقط، بل كانت هناك أمور أخرى نقدمها في الجمعية لتلك الفتيات، مثل الاستشارات الاجتماعية والمساعدات القانونية أيضاً، وكنا على تواصل كامل مع الجامعات لمعرفة درجات التحصيل العملي التي تحصل عليها الفتيات، مما سهل علينا تدارك أي مشكلة قبل أن تصبح كبيرة وعصية عن الحل.

بهذه الطريقة، استطعنا أن نحدث فرقاً ملحوظاً في عدد الطالبات الدارسات بالجامعات، هل كنا متحيّزات للنساء والفتيات في جمعيتنا من خلال تقديمنا للفروض للطالبات فقط دون الطلبة الشباب، نعم نحن متحيزات قلباً وقالباً أيضاً، فهذه الجمعية قامت لهدف واحد وهو مساعدة النساء في المخيمات على أن يتقدمن ويحصلن على فرصة التعلم، فإن كان الرجال يريدون دعم الشباب الطلبة فليقيموا لهم جمعية خاصة بدل أن يتّهمونا بالتحيّز لبنات حواء.

أما المشروع الثاني الذي بدأنا العمل به، فلم يكن نتائج عصفنا الفكري بل كان نتائج فكرةً تقدم بها أخي الطبيب نجيب، فقد حثّنا على تأسيس صندوق مختص في مساعدة النساء اللواتي لم يتمكن من الإنجاب من خلال تقديم المساعدة المالية والمشورة الطبية المتخصصة في موضوع الإنجاب لهن ولأزواجهن، فأخي نجيب هو طبيب نسائي معروف ومشهور، وهو يعمل ضمن تخصص طبي اسمه الإخصاب الصناعي «أو ما يسمى أطفال الأنابيب»، كنت أنا من أكثر المتحمّسين لتلك الفكرة، فأنا من دعاة أن تنجب المرأة الفلسطينية قدر ما تشاء ما دامت قادرة على الرعاية والتربية، وما دامت هي أولاً وقبل كل شيء ترغب بذلك.

في إطار ذلك المشروع استطعنا مساعدة عدد من النساء على تحقيق حلمهن بأن يصبحن أمهات.. فقد كنا نحن في الجمعية نبحث عن المحتاجة لمثل هذا النوع من المساعدة، وكان أخي الطبيب نجيب وعدد من أصدقائه الأطباء المتطوعين يقومون بتوفير العلاج اللازم والدواء المناسب.

كنت أفضّل أن تبقى جمعيتنا تعمل في مثل تلك الأمور التي توفر حلولاً عملية لمشاكل صعبة ومهمة، فالتعليم والإنجاب شيئان يجب أن لا يحرم منهما اللاجئ الفلسطيني، فهما سوف يكونان السلاح الذي يمكّننا من الانتصار في معركة التحرير والحرية.

لم نكن نقوم بتنظيم اجتماعات أو ندوات داخل الجمعية، بل كنا نفضّل أن نكون قريبين من فتيات ونساء المخيم، ولذلك فقد أصبحت علاقاتنا معهن علاقات عائلية وشخصية، فهن يزرننا في الجمعية وفي بيوتنا، ونحن أيضاً كنا نقوم بزيارتهن في منازلهن نتناول الطعام ونتحدث ونبحث عن الجزء الممتلئ من الكأس لتزيد إملاءه بدل أن نعيب على الجزء الفارغ، بدل أن ننقص ما بالكأس من ماء، كنا نسكب به الماء إن استطعنا، لم نكن نخرج من منزل إلاّ وقد أصبحنا نشعر أننا جزء منه، جزء من أصحابه، وجزء من حل مشاكلهم.

لم نكن نملك عصاً سحريةً، لكننا كنا نملك إرادةً حديدية ثابتة وقوية، وكانت أفعالنا لا نبتغي من ورائها إلا مرضاة الله تعالى.

هناك في المخيم ما عادت ليلى تتحدث باللكنة المدنية المتعالية المتكبرة، بل كانت تتحدث بلكنتها الأصلية كانت فلاحة ولهجتها لهجة سيدات المخيم، لا لهجة سيدات المجتمع المخملي الذي عاشت به في أعوامها الماضي، ليلى ما عادت ترتدي الحلي الذهبية، فبعد أن تبرعت بحليها لصالح أطفال الانتفاضة فإنها لم تشتري أي قطعةٍ ذهبية بل كانت زاهدةً لحدّ تُغبط عليه.

ولقد استطاعت ليلى ضمّ عدد من سيدات المجتمع المخملي إلى جمعيتها، مشترطةً عليهن أن يعملن بصمت وبدون مباهاة ولا خيلاء.. بتواضع وبصمت عملن معها على توفير المساعدة لنا بالجمعية لأنها لا يعقل أن تأتي تلك السيدات إلى الجمعية

لتقديم المساعدة والواحدة منهنَّ ترتدي ذهباً يكفي لإعالة عائلة من عائلات المخيم لعشرة أعوام متواصلة، ولا أن ترتدي على كتفها معطفاً صنع من الفرو يساوي عدة آلاف من الدنانير، وفتيات المخيم ونساؤه لا يملكن ثمن غطاء يقيهن برد الشتاء، فإن أراد إنسان أن يقدم المساعدة فإن أول شيء يجب عليه فعله هو النزول إلى الشارع، إلى الميدان، النزول إلى مستوى من يقدم له المساعدة حتى لا يشعر من يتلقاها بالإهانة والضعف حتى لا يشعر بالذل وبفرق المستوى الطبقي البغيض.

جمعية النور والأمل.. كيف لها أن تكون إن لم تكن ابنتي أمل بجانب أخيها نور لكي يساعداني في أعمال الجمعية، فقد عمل أبنائي التوأمان معي طوال العطلة الصيفية داخل الجمعية، ولقد كانا يساعدان بأعمال تنظيف المكاتب والتخلّص من القمامة، وكانا سوياً يساعدان كبار السن على نقل حاجياتهم، ولقد شجع ذلك أطفال أختي فاطمة الذين كانوا قد أصبحوا شباباً جامعيين، وأبناء ليلى وسميرة على تقديم العون لنا، فكان الكبار منهم والجامعيّون يساعدوننا في متابعة شؤون الطالبات اللواتي كنا نرعاهن. أما الصغار فقد كانوا يجمعون التبرعات المالية والعينية من أقاربنا ومن أصدقائنا، فنحن لم نشأ أن نوسّع كثيراً من نشاطاتنا في المرحلة الأولى، بل أردنا أن ننطلق بخطىً بطيئة وثابتة حتى لا نقع قبل أن نحقّق الغاية التي أنشأنا لأجلها الجمعية.

كل تلك الأخبار كانت تصل هناك بعيداً خلف أسوار السجن إلى زنزانة أسر زوجي إسماعيل الذي كان قد طلب مني أن أبدأ بالاعتناء وتقديم المساعدة إن استطعت لأسر الأسرى والشهداء، وكان يساعدني من خلال تزويده لنا بأسماء من هم بحاجة ملحة من تلك الفئة الكريمة العفيفة من أبناء شعبنا الفلسطيني المجاهد المقاوم.. تلك الفئة التي قدمت الغالي والنفيس في سبيل تعبيد درب الحرية والتحرر...

كانت الأسماء تصل تباعاً وكنت أقدم لأصحابها كل ما أستطيع من مساعدة من خلال الجمعية التي كانت تكبر يوماً بعد يوم، ويكبر معها النور والأمل أيضاً.

سراب أم حقيقة

كنت جالسةً في مكتبي داخل جمعية النور والأمل محاولةً الانتهاء مما تبقى بين يدي من عمل استعداداً للذهاب للبيت، عندها جاءتني شابة من بنات المخيم وعانقتني بشكل قوي جداً، وقالت لي: مبروك.. مبروك.. كررتها وهي تقول: لقد صبرتِ يا أستاذة ماجدة وجازاكِ الله خيراً على ذلك الصبر الطيب.

ما أن انتهت تلك الشابة من قول جملتها حتى بدأ مكتبي يكتظُّ بالنساء والفتيات المهنئات، حتى أن فاطمة أختي كانت معهن، ثم ليلى وسميرة، تبعتهن بتقديم التهاني لي، كنت محرجةً من سؤالهن عن سبب تلك التبريكات، وعن تلك الزغاريد التي بدأت تضجُّ أرجاء الجمعية، بل وأرجاء المخيم كله.. لقد تحوّل المخيم خلال دقائق معدودة إلى ما يشبه ساحة العرس، حتى أنني خفت عندما سمعت صوت إطلاق الرصاص، إلا أن النساء المهنئات لم يخفن بل على العكس كنّ أكثر سعادةً وأكثر مرحاً، كانوا هم يعلمون ما لم أكن أعلمه، وما لم أجرؤ على سؤالهن عنه، لقد كانت النساء تصطف بالدور حتى يقدمن لي التهاني والتبريكات.

بقيت على تلك الحالة حتى قالت إحدى النساء وهي تعانقني: مبروك يا أم نور. جاء اليوم الذي سوف يصبح لنور وأمل أخوةً يلعبون معهم، فأنتِ ما زلتِ صغيرة وقادرة على الإنجاب بعون الله وبإذنه تعالى... وأردفت فتاة أخرى ممازحة أنظروا إلى وجه أم نور لقد أنار فرحةً وسعادة، فقد كان من عادتي أن أرفع النقاب عند استقبال السيدات داخل الجمعية أو عندما أزورهن في منازلهن.. كان هاتف مكتبي يرنّ وهاتفي الجوال يرنّ، إلاّ أنني لم أكن أستطع الرد عليهما فيداي مشغولتان بالسلام وفكري مشغول أكثر وأكثر.

ومع ذلك، فقد لاحظت أن النساء يهنئنني ومن ثمَّ يقمن بتهنئة ليلى وسميرة، أما فاطمة فكان البعض يهنئنها والبعض يكتفي بالسلام عليها فقط.

عندما زادت حيرتي وشعرت أنني أبدو مثل البلهاء، قررت أن أجيب على أحد الاتصالات التي ما زالت هواتفي تعج بها.. كان المتصل هو مديري السابق في المكتب الإعلامي الذي كنت أعمل به، قال لي: مبروك يا ابنتي وألف مبروك، كان ذلك الشخص في مقام والدي حتى أنني أعد أصغر من بعض أبنائه وبناته، ولم يكن بيننا حواجز تجعلني أتحرج من سؤاله عن سبب تهنئته لي، إلاّ أنه وقبل أن أسأله مستفسرةً عن سبب الاتصال والتهنئة، قال:

اليوم وقعوا على الاتفاق، ليس اليوم وإنما قبل نحو الساعة تحديداً، أما تنفيذ الاتفاق فسوف يكون خلال الأسبوع القادم بإذن الله، وقد علمت أن زوجكِ من بين الذين سوف يطلق سراحهم إلاّ أنه لن يتم تحريره إلى داخل الأراضي الفلسطينية، وإنما إلى دولة أخرى، دولة شقيقة مع بعض المبعدين. لا أعلم من سوف تكون تلك الدولة، لكنني أعدكِ يا ابنتي أم نور أن أتابع ذلك مع الأشخاص المعنيين، فأنا كما تعلمين أعمل في مجال الإعلام... الإعلام المقاوم، لذلك سوف آتيكِ بالخبر من مصادر موثوقة وحقيقية.

حقيقةٌ هي إذاً لا سراب.. تلك الجملة هي التي ما يدور برأسي الآن بعد أن أغلقت الهاتف شاكرةً مديري السابق، حقيقة لا سراب، سوف يتم تحرير زوجي خلال أيام بعد أن أمضى أعواماً داخل زنازين الأسر الصهيوني.. لقد رضخ الصهاينة لشروط المقاومة وها هم سوف يحررون الأسرى الفلسطينيين مقابل أن تطلق المقاومة جنديهم الذين أسرته الأيدي الفلسطينية من داخل دبابته التي كانت تصب نيران مدافعها نحو قطاع غزة المحاصر.. وإلى غزة اقتادت أيدي المقاومة ذلك الجندي مأسوراً، واحتفظت به لأكثر من خمسة أعوام متواصلة دون أن تتمكن أجهزة أمن الاحتلال الصهيوني من معرفة مكان احتجازه على الرغم مما بذلته من مجهود. وعلى الرغم من مساعدة من تبقى من شرذمة أمن سلطة أوسلو بعد الحسم العسكري المبارك الذي قادته المقاومة ضد أجهزة أمن

أوسلو طاردةً إياها من القطاع الغزي... ومحررةً القطاع من وكلاء أمن الاحتلال المتمثل بجهازي الوقائي والمخابرات العامة الفلسطينية بعد أن حرّرته من قوات الاحتلال الصهيوني.

اليوم تحوّل السراب إلى حقيقة... حقيقة مؤكدة بإذن الله، فقد وقعت المقاومة على بنود الاتفاق مع الحكومة الصهيونية، وها هن نساء المخيم الفلسطيني الموجود في عمان يقدمن لي التهاني والتبريكات.. في تلك الأثناء وصل ابني نور ومعه أخته أمل قادمين مع عمهم نجيب، وصلوا ليرفعوا على أكتاف المهنئين الذين كانت السعادة تغمرهم وتغمر مخيمهم نساءً ورجالاً، وعلى الرغم من أنهم مهجّرون منذ أعوام طويلة، إلاّ أنهم يعشقون فلسطين ويفخرون بالمقاومة ويساندونها ويمدون لها العون رغم ضيق الحال. ما أن وصل نجيب حتى وصل بعده مباشرة باقي إخوتي، وصلوا حاملين معهم الحلوى والعصائر، موزعين إياها على المهنئين، مما جعل المشهد يتحوّل إلى عرسٍ حقيقي اكتملت كافة أركانه، فنور وأمل محمولان على الأكتاف والحلوى توزع والنساء يزغردن والمهنئون ما زالوا يتوافدون ويتوافدون.

ما عدت أشعر أنني أسير على قدمي، بل أنني أجزم أنه من شدة فرحي بدأت أحسّ بأنني خفيفة الوزن قادرةً على التحليق بلا أجنحة... سعيدة أنا، والسعادة عندنا نحن نساء فلسطين تعني الدموع والبكاء أيضاً، فمن شدة سعادتي كانت دموعي قد ملأت عينيَّ وفاضت كشلالٍ من دموع الفرح.. دموع العزة والانتصار.

واصل أهل المخيم احتفالاتهم بخبر تحرّر زوجي على الرغم من أنهم لم يروه، ولم يكن هو قد رآهم أو عرفهم، إلاّ أنهم قد عرفوا زوجي من خلال متابعتهم لأخبار المقاومة وأخبار رجالها ومقاوميها وأسراها.. هكذا هم أهل المخيمات الفلسطينية يفرحون ويسعدون إذا ما فرح أحدهم، وتكبر فرحتهم إذا ما تعلّق الأمر بفلسطين، فقد كانت الحلوى توزّع في المخيمات الفلسطينية كلها احتفالاً بما تقوم به المقاومة من أعمالٍ جهادية ضد الاحتلال وقواته الغاصبة ومستوطنيه المجرمين.

فالمخيمات هي نبض الشارع الفلسطيني الحقيقي، وهي أيضاً بوصلة العمل الوطني الحر المقاوم.

ظلّ المخيم على حاله الاحتفالي حتى بعد أن حلّ المساء، بل أن حلول المساء زاد من تلك الاحتفالات، فبدأت الألعاب النارية تطلق إلى السماء مضيئةً المخيم، معيدةً له فرحةً كان يبحث عنها منذ أعوامٍ وأعوام.

تلك الفرحة لم تكن بمناسبة تحرر زوجي إسماعيل، وإنما كانت سبب تحرّر أسير مقاوم نذر نفسه للقتال ضد الاحتلال، لم يكن زوجي وحيداً بل كان واحداً من آلاف الفلسطينيين الأحرار المقاومين، ففلسطين كما تقول أمي ولاّدة، كل يوم تلد مقاوماً ثائراً، كل يوم تعوّض ما فقدته من شهداء من خلال استمرار الوفاء للنهج المقاوم والفكر الحر.

جفت دموع الفرح، وبدأ صوت الزغاريد يضعف ويتلاشى، وبدأت النساء المهنئات يودعنني عائدات إلى منازلهن، فودّعتهن وعدت أنا أيضاً إلى منزلي بصحبة أخوتي وأخواتي وأطفالي.. في طريق العودة كانت أمل تناكف أخاها نور قائلةً له بأن أباها يحبها أكثر منه، وكان يرد عليها بأن يقول لا على العكس إن أبي يحبني أكثر منكِ، فأنا.. لا يدري من أنا.. ولكن أبي يحبني أكثر منكِ... تواصل النكاف بينهما وأنا أسمع وأشاهد سعيدةً لكونهما سعداء.

وصلنا إلى البيت حيث أسكن مع أمي وخالتي أم عوض اللتين كانتا فرحتين لدرجة أنني ما عدت أرى بوجه أم عوض حزناً ولا ألماً، سعيدتين بحيث أنهما كانتا تغنيان تهللان تزغردان دون انقطاع.. أمي توزّع الحلوى على أقاربنا وجيراننا المهنئين، فحتى جيراننا الذين لم أكن أعرفهم رغم أنهم يسكنون بجوار منزلنا، كسروا حواجز المدنية حواجز الإتيكيت، وتجاوزوا الرسميات، فهناك بضواحي عمان الحديثة لا يجرؤ أحد على الحضور لزيارة جاره أو أخيه إذا ما لم يكن هناك موعد مُسبق.. ما لم تكن هناك استعدادات.

إلاّ أن فرحة الجدتين أم نجيب وأم عوض قد جعلت سكان ضاحيتنا الهادئة الباردة تصبح ودودةً متلاحمة، قد قامت أمي وخالتي بجعل عبيدة زوج أختي

فاطمة يقوم بشراء كميات كبيرة من الحلوى والكنافة، وقامتا معاً بتوزيع تلك الحلوى وإيصالها إلى منازل الجيران بدون إذن ولا استئذان، كانتا تطرقان الأبواب وتقولان هذه الحلوى هدية لكم بمناسبة اقتراب موعد تحرّر ابننا إسماعيل، أنتم لا تعرفونه.. إنه ابننا أبو النور.. ابنٌ صدق وعده مع الله وجاهد بسبيله فقتل من الصهاينة العشرات والعشرات، وأسر.. وها هو الله عزَّ وجلَّ يكتب له الحرية والتحرر والنصر قادم، فتفضلوا هذه الحلوى فهي عربون إخاء وعلامة انتصار.

ثم كانت الجدتان تعودان إلى مسكنهما ثانية؛ لتواصلا توزيع الحلوى على أقاربنا الذين كانوا قد ملأوا المنزل.. بل ملأوا كل أرجاء العمارة.. فلقد فتحت شقق إخوتي الثلاثة مرحبةً بالضيوف الرجال، أما شقة أمي وحديقة المنزل فكانتا مكاناً للنساء والأطفال الذين ملأوا أرجاء المكان.

لا أعلم من قام بإحاطة جدران المنزل من الخارج بالمصابيح الملونة، ولا أعلم أيضاً من ملأ أرجاء البيت بها أيضاً فقد كانت مصابيح جميلةً متعددة الألوان، وكانت تتلألأ في المكان، ولم أكن أدري من قام بوضع مكبرات الصوت الكبيرة التي كانت تصدر عبرها أجمل أناشيد المقاومة.. مقاومة التحدي والانتصار، كنت أشاهد ذلك وأسمع، وكانت عيناي وبشكلٍ لا أرادي قد قررتا العودة إلى بحر الدموع.. لا دموع بعد اليوم بإذن الله، جففي دمعك.. خذي هذه المناديل وكفي عن البكاء يا ابنتي، فاليوم هو يوم فرحٍ وسرور، قالت لي والدتي قالت لي ذلك الكلام وهي تبكي.

جففت دمعي بمنديلها وأعدته لها لتجفف هي الأخرى ومعها نعم لا دموع بعد اليوم... بعد حلول منتصف الليل بقليل، لم يبقَ من المهنئين أحد، فكلهم إلى بيوتهم قد عادوا بعد هذه السهرة والاحتفال المفاجئ، كان من المفترض أن يكون أمل ونور قد غطا في نومهما منذ عدة ساعات استعداداً للذهاب للمدرسة في صباح اليوم التالي، إلا أنهما كانا ما يزالان مستيقظين وكانا يتسامران مع جدتيهما سائلين إياهما عن والدهم، وكانت الجدتان تقصان عليهما قصصاً وحكايات عن إسماعيل. جلست بجوارهم بهدوء أسمع ولا أتحدث، أسمع تلك الحكايات والقصص التي عايشت بعضها مع إسماعيل وسمعت بعضها الآخر عشرات المرات من الجدتين.

عندما هدأ الحديث قليلاً بعد أن شعرت الجدتان بالنعاس والتعب، قلت للأطفال هيا إلى النوم، غداً يوم دراسي.. هيا لتناما استعداداً للعطلة.. فعلى الرغم من أن الدراسة متواصلة في المدرسة إلا أنكما سوف تحصلان على عطلة لمدة أسبوعان.. أسبوعين قبل مجيء والدكما، وأسبوع بعد مجيئه لتكونا معه طوال اليوم وعلى مدى أسبوع.

رفضت أمل هذه الفكرة وأيدها نور على الفور، فقد أرادا أن يذهبا غدا للمدرسة رغم تعبهما وعدم نومهما في هذه الليلة، وأرادا أن يبقيا طوال الأسبوع متابعين لدروسهما على شرط أن يحصلا على أسبوعين كاملين مع والدهما عند عودته محرراً بإذن الله عزَّ وجلَّ.. فكرتهما كانت أفضل من فكرتي فوافقت عليها ما داما يرغبان بها.

وضعتهما في سريرهما، وأنا واثقة أن أياً منهما سوف يستطيع النوم، فقد رأيت ذلك بعينيهما، تلك العيون المتعبة من شدة السهر والأجساد المتعبة من الوقوف طوال اليوم؛ لتهنئة المهنئين كانت تخفي خلف ذلك التعب إصراراً وعزماً على أن لا تنام ولا تستيقظ، وحتى لا تتحول الحقيقة الجميلة التي كانا يعيشان لحظتهما إلى حلم بغيض.

بغرفتي وإلى المرآة نظرت لعلي أجد ذلك النور الذي تحدثت النساء عن كونه موجوداً ناضحاً بوجهي، بحثت لكني لم أجده، بل وجدت وجه امرأة قد أتعبتها مصائب الدنيا وأنهكتها المحن، لكنني وجدت شيئاً جديداً قديماً، شيئاً كنت قد نسيته منذ زمن، وجدت ابتسامة كبيرة مرسومة على شفتي، ابتسامة تملأ وجهي كله، حاولت أن أزيلها إلاّ أنني لم أستطع فقد كانت قوية وثابتة ومصرةً على البقاء حيث هي فوق شفاهي.

صليت صلاة العشاء، وقضيت صلاة المغرب التي لم أتمكّن من أدائها بسبب تزاحم النساء عندي في الجمعية، صليت صلاة المغرب قضاءً وأتبعت الصلاة بالصلاة شكراً وحمداً لله الذي أعاد البسمة والفرحة لي ولأطفالي ولعائلتي، شكرت الله وحمدته كثيراً على أنه منّ على زوجي إسماعيل بالتحرر والانعتاق من قيد الأسر البغيض.

أنهيت صلاتي واضعةً رأسي على الوسادة لعلي أتمكن من النوم، إلاّ أن النوم لم يكن مطلباً لي سعيت إلى الحصول عليه، بل أنني أردت أن أنفرد بنفسي بعد هذا اليوم الطويل والشاق والمفرح...

رفض فكري أن يقفز إلى المستقبل، قبل أن يغلق ملفات الماضي، تلك الملفات التي عشت أحداثها بلا حبر وورق، ولذلك بدأت أعود بفكري إلى تلك الليلة التي كنت قد أعددت حقائبي قبل طلوع فجرها استعداداً للسفر وعبور الجسر الحدودي وصولاً إلى أميري المقاوم.

ذلك الأمير الذي كنت لا أعرف عنه شيئاً سوى أنه ابن خالتي، وأنه مسلم ملتزم.. غير ذلك ما كنت أعلم، ولا أظن أني أعلم من هو إسماعيل على الرغم من مرور أكثر من اثني عشر عاماً على زواجنا، فأنا لم أعش معه حياةً طبيعية سوى بضعة أشهر، ولا أظن تلك الأشهر قد تجاوزت الثلاثة، فعندما وصلت إلى فلسطين في الشهر السادس من عام 2000 اندلعت الانتفاضة الفلسطينية انتفاضة الأقصى في الشهر التاسع من نفس العام، وبعدها تواصل اندلاع الحدث تلو الحدث مبعداً عني إسماعيل تارةً، ومقربه مني تارةً أخرى، فإسماعيل هو أيضاً أب الشهيدة نور.. الأب الذي تألم لاستشهاد رضيعته وقام ثائراً مقاوماً ليرد على جرائم الاحتلال، فقاوم وقاوم.. ثم حوصر وحوصرت أنا معه في مخيم جنين... حوصرنا واقترب أحدنا من الآخر رغم أنف قوات العدو التي كانت تضيّق الحصار قصفاً ودماراً.

نجا إسماعيل من ذلك الحصار، ومكّنه الله من أن يحصد عدداً من رؤوس الأعداء الصهاينة.. ونجيت أنا وأمه، نجوت ونجا ذلك التوأم الذي كان بداخلي، لكن بيتنا لم ينجُ، ودمّر متحولاً إلى ركام على يد آلة القتل والدمار، آلة الاحتلال البغيض.

نجوت ومنّ الله علي بأن أنجب توأماً، فأصبح إسماعيل أباً لنور وأمل.. أباً مطارداً عاش بعيداً عنا وعشنا بعيداً عنه، فقد كان يتنقل من مدينة لأخرى مواصلاً دربه في مشواره الجهادي المبارك.

واصل المشوار وتواصل الطريق بُعداً بيننا، فكانت أخباره تنقطع وتعود، وتعود لتنقطع مرةً أخرى.. فاعتقلت أنا وسجنت، ثم أبعدت بعيداً عن فلسطين

ومخيم جنين إلى عمّان، فأصبح النهر الجاف حاجزاً جديداً بيني وبينه، وعادت أخباره للانقطاع، حتى صباح ذلك اليوم الذي حوصر به بعيداً ووحيداً في أحد ضواحي مدينة الخليل.. خليل الرحمن، هناك حوصر وأصيب وكاد أن يستشهد، وهنا في عمان عشت حزن الانتظار وطول الفراق بعد أن أسر جريحاً مصاباً.

ومرت الأعوام فإذا بي أتحوّل من أم الشهيدة إلى المحاصرة، ثم زوجة المقاوم المطارد، فزوجة المقاوم الجريح الأسير.. هذا ما أذكره عن إسماعيل..

إسماعيل أميري الخجل ما عاد خجلاً أبداً، بل أنه كان وسيبقى أسيراً مقاوماً حراً شريفاً رغم بقايا القيد التي ما تزال آثاره على يديه، إلاّ أن تلك القيود سوف تنكسر وسوف تزول آثارها عن تلك الأيدي المتوضئة الطاهرة، أيدي إسماعيل وأيدي إخوته المقاومين جميعاً.. فهم جند الله الذين عقدوا العزم على الجهاد في سبيله وحده، ومن أجل نصرة دينه وإعلاء كلمة حقه، كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

مجرّد تفكيري بأن السراب أصبح حقيقةً، وأن موعد اللقاء قد اقترب يجعلني أخاف... أخاف من المجهول، من إسماعيل.. هل تبدّلت طباعه، أمازال يحبني؟؟ هل مازال بشوشاً مبتسماً كما خبرته؟؟ هل سيعامل أطفالي بحب وود أم أن جراح الأسر وقسوة السجن قد تركتا عليه آثارهما؟.

لكن سرعان ما ذهبت تلك الفكرة من رأسي، فإسماعيل تكاد رسائله التي تصلني تقطر عسلاً شهداً لكثرة ما فيها من كلام طيب وجميل.. كلام حلو وأحلى من شهد العسل، ذلك هو كلام إسماعيل من خلف جدران أسره، فلا يعقل أن يكون إسماعيل قد تغير، فهو زوج محب، وأب حنون على الرغم من كونه مقاوماً شرساً جسوراً.. فإسماعيل يردد دائماً جزءاً من حديث نبوي شريف، قائلاً إن المؤمنين أشداء على أعدائهم الكفار الظالمين الباغين، وأنهم رحماء طيبون فيما بينهم، فالمؤمن شديد على الكافر رحيم على المؤمن، إذاً سوف يتغير إسماعيل ولكن سوف يكون هذا التغير من خلال صقل معدنه الطيب، ليكون أكثر وأكثر طيبة وتسامحاً وحباً.

فذلك ما حدث لي خلال الأشهر الستة التي أمضيتها بداخل الأسر، فهناك تعلمت على يد أم الأسيرات أم عبد السلام أبو الهيجاء كيف أصفح وأسامح، كيف أكون أماً مجاهدةً مثلها ومثل بناتها بنات الشيخ المجاهد جمال أبو الهيجاء، وهناك في الأسر تعلّمت من صاحبة أعلى حكم بتاريخ دولة الكيان الصهيوني، أعلى حكم تحكم به فتاة مسلمة عربية فلسطينية أردنية.. تعلمت من أحلام التميمي تلك الصحفية المجاهدة كيف أقاوم بيد وأتمسّك بالحياة الكريمة بيد أخرى.. فهي على الرغم من حكمها العالي، إلاّ أنها ارتبطت بمقاوم من ذوي الأحكام العالية، وهو ابن عمها نزار التميمي.. ارتبطا ببعضهما إيماناً منهما أن الفجر قادم، وأن الظلم زائل... زائل هو الظلم ومكسور هو القيد، وعائد إلي وللحرية زوجي الحبيب وأسدي المقاوم إسماعيل.. عائد ليعوَضني عن البعد والفراق وليغمرني حباً وحناناً، عائداً لي لأفيض عليه بما أعددته له من حبٍ وحنان.

فجر الحرية وكسر القيد

ما كاد المؤذن يفرغ من أداء أذان صلاة الفجر، حتى كان كلٌّ من أمل ونور قد وقفا بباب غرفتي على غير عادتهما، فقد كنت أنا من تقوم بإيقاظهما من أجل أداء الصلاة، إلاّ أن فجر هذا اليوم ليس كفجر الأيام السابقة، فاليوم موعد إطلاق سراح الأسرى من داخل زنازين الأسر الصهيونية. فقد مرّ الأسبوع الماضي بلمح البصر، كان أسبوعاً متسارعاً بحيث أن أيامه كانت قصيرة جداً، فقد كنا مشغولين خلاله باستقبال المهنئين الذين كانوا ما يزالون يتوافدون على منزلي وعلى الجمعية، وكنا مشغولين بمتابعة الأخبار وملاحقة الأنباء، ما أن رأيت أطفالي حتى قلت لهما: لم تناما هذه الليلة... صحيح؟؟ فأجابا: نعم لم نتمكّن من النوم فقد كنا بانتظار سماع صوت الأذان حتى نتأكد أن الليل قد انقضى، وأن الفجر قد حلّ محله.. فقلت لهما: نعم.. حلّ الفجر محل الليل، حل فجر الحرية وكسر قيد عتمة الأسر البغيض، وحلت الحرية مكان القيد.. فلا قيد بعد الآن ولا أسوار سجن سميكة ولا قضبان أسر، بل الحرية والحب هما ما ستكونان بانتظارنا بإذن الله.

هيا يا أولادي لنصلي مع جدَّتيكما فلا أظن أنهما استطاعتا النوم بهذه الليلة أيضاً، فهما على أحرّ من الجمر لرؤية أبيكم إسماعيل، قادم هو بفضل ربه وبعون رجال المقاومة الإسلامية حماس، وبعون من بددوا الوهم وأوفوا بالوعد والعهد.

طلبت ولا أدري كيف طلبت بل كيف صلينا، فقد كنت شاردة الفكر والذهن مما جعلني أعيد أداء صلاتي بشكل منفرد حتى أتأكد من أنني أديتها بشكلٍ صحيح بعيداً عن الشرود والفكر، وأتمنى لو أكون قد نجحت...

ما أن أنهينا الصلاة حتى قامت الجدَّتان لتعدا الفطور مبكراً بدل القهوة التي كنّ قد شربن منها كثيراً ليلة أمس، فما عاد لها لزوم صباح اليوم.

تناولنا طعام الإفطار قبل أن تطلع الشمس وأثناء صياح الديك، ديك كسول استيقظ متأخراً.. هكذا قالت أمل وأردف نور.. مادام كسولاً سوف نشتري له ساعة منبهة لتوقظه مبكراً يوم غد.

أثناء ذلك كان ديك آخر قد استيقظ مبكراً ليتصل بي ويخبرني أن إسماعيل سوف يتم إبعاده إلى قطاع غزة وليس إلى جنين أو إلى خارج فلسطين.. كان ذلك الديك هو ابن أختي فاطمة «فهد» الذي كبر وأصبح أحد رجال المقاومة.. قال: استيقظي يا خالتي وجهّزي حقائبكِ، سوف نسافر سوياً إلى قطاع غزة، حيث سوف يصل إلى هناك أبو النور.

وما أن انتهى الاتصال حتى بدأنا بإعداد حقائبنا على عجل، لنسافر من عمان إلى قطاع غزة، لعلنا نتمكن من الوصول مبكراً قبل وصول إسماعيل حراً محرراً إلى قطاع غزة.

قام أخي نجيب بحجز تذاكر السفر إلى مصر عن طريق الجو، إلاّ أن موعد إقلاع الطائرة كان في يوم الغد، مما جعلنا نسافر بالسيارة إلى مدينة العقبة الأردنية... وهناك في العقبة ركبنا الباخرة مجتازين البحر وصولاً إلى الميناء المصري، ثم اجتزنا الصحراء وصولاً إلى قطاع غزة من خلال إحدى الحافلات، وقد كنا نتابع أخبار سير عملية إطلاق سراح الأسرى أولاً بأول.

مكّنتنا السلطات المصرية ورجال المقاومة في حكومة المقاومة الإسلامية بقطاع غزة من الدخول على الرغم من كوننا لسنا غزيين ولا نحمل أوراقا تخوّلنا من الدخول إلى قطاع غزة، دخلنا ووجوه العزة والكرامة رأينا هناك، على الرغم من الحصار الجائر الذي تمارسه قوات الاحتلال الصهيوني على قطاع غزة، إلاّ أن أهله أناس أحرار الكرامة.. فكرامتهم لا تخضع للمساومة ولا للبيع والشراء بل تخضع لله رب العزة وحده، مما جعل أهل غزة ينعمون بحكم المقاومة الإسلامية، هناك بحرية الرأي وبحرية التصدي للعدو، إذا ما حاول الاعتداء على القطاع الغزي المحاصر.

وما هي إلا ساعات حتى دخل إلى قطاع غزة عدة مئات من الأسرى المحررين،

وكان بحمد الله زوجي إسماعيل بينهم، لم أتمكن من رؤيته، ولا مقابلته، فقد كانت الجموع الهادرة تحيط به وبإخوته الأسرى المحررين في الطريق إلى الساحة الخضراء حيث أقيم لهم مهرجاناً كبيراً حضره آلاف مؤلّفة من أطفال ونساء ورجال القطاع الغزي المقاوم.

كل ذلك ما كان يهمني الآن ولا يشغل بالي ولا بال أطفالي، بل كان المهم عندنا أن نلتقي بزوجي أبي النور، وهذا ما حدث، فقد تسلل زوجي وسط الجموع متناسياً المحتفين به وبرجال المقاومة حتى وصل إلينا، حيث كان فهد قد أعد العدة في إحدى فنادق مدينة غزة.

ما أن وصل حتى وصلت معه رائحته الطيبة العطرة ووصل دفء الزوج والأب المحب.. فرّت منا الكلمات وحلت محلها النظرات لتروي عطش الاشتياق بقدر ما كنت أنا بحيرةٍ من أمري، فقد كان إسماعيل بحيرة أكثر، فقد كان لقاؤه مع أولاده أمل ونور لقاءً مفعماً بمشاعر الأبوة والانتظار، فقد كان إسماعيل يعد الأيام والليالي انتظاراً لهذا اللقاء الذي ما أن تم حتى وجد نفسه يقف أمام طفلين قد تجاوزا مرحلة الطفولة، وباتا على أعتاب مرحلة المراهقة المبكرة، باتا أطول مما كانا عليه قبل أعوام وأثقل من أن يتمكن من حملهما الاثنين بيد واحدة كما كان يفعل، بل أنهما أصبحا أكبر من أن يحمل كل واحد منهما على يد لوحده.

فما كان منه إلاّ أن رفع أمل فوق كتفه الأيمن ورفع نور فوق كتفه الأيسر، رفعهما وهما يرفعان بين أيديهم أعلام المقاومة الخضراء.. أعلام لا إله إلا الله محمد رسول الله.

كنت أنظر وأشاهد غير قادرة على التعبير بما يجول بخاطري، لكنني كنت أرى فمه يتحرك ناطقاً بكلمة أحبكِ مكرراً إياها بلا صوت، فما كان مني سوى أن أبادله كلمات المحبة الصامتة مكررةً إياها كلما تلاقت عينانا.

على الرغم من أن الكلمات صامتة، إلاّ أن معناها كان يحرّك بداخلي كل الذكريات الجميلة التي عشتها مع إسماعيل على الرغم من قلتها إلاّ أنها كانت ذكريات جميلة وصادقة، ويعود سبب ذلك إلى أنه على مدى أكثر من اثني عشر عاماً من زواجي

من أميري المقاوم لم تنشأ بيننا مشكلة واحدة طوال تلك المدة.. لم أنم ليلة واحدة وعيني دامعة منه بل كنت أنام ودمعتي دامعة عليه، على حبي له الذي حرمت منه بسبب الاحتلال.

على الرغم من قلة الذكريات الجميلة التي عشناها معاً، إلاّ أنها ما تزال نقيةً صافية لم تشبها مشاكل هذا الزمن الصعب الذي يفقد من لا يتمسكون بإيمانهم بالله بوصلة الحب السامي المتسامي على توافه هذه الدنيا الزائلة. أنزل فهد التوأم من على كتفي أبيهم فامتدت يدي إسماعيل لتضمني نحوه.. ضمةً جعلتني أنسى كل ما واجهته من مصائب ومحن طوال الأعوام السابقة. والله إنها ضمة أعادتني في العمر اثني عشر عاماً. فها أنا اليوم تلك الفتاة المشاكسة، وها هو أميري المقاوم الذي التقيت به عندما عبرت الجسر الحدودي قادمةً لإتمام الزواج منه، وها هي روحي تعود إلي من جديد بعد أن عاد إلي من تزوجت وأحببت، عاد من عشت معه كأنني ملكة متوّجة.

في تلك الأثناء، انضم نور وأمل إلينا معانقينا فانضمت لنا السعادة بأبهى صورها...

كنا جائعين وكان فهد قد أعد لنا طاولةً مليئة بالطعام، جلسنا لنأكل ولم أكن أدري من منّا يقوم بإطعام الآخر، فيد إسماعيل تقدم الطعام لأمل ونور، ويدي تقدم الطعام لإسماعيل، وأيادي نور وأمل تنتقل بين أفواهنا حاملة معها الطعام.

وينقلب الحال، فيطعمني إسماعيل حتى يمتلئ فمي، وأكاد أغص من كثرة الطعام.. كانت مشاعر الحب قد استعملت أيدينا وسلبتنا للتنقل من خلال الطعام مما جعلنا نشبع طعاماً وحباً في آنٍ واحد.

على الرغم من كوننا مرهقين من قلة النوم وتعب السفر، إلاّ أننا كنا نكابر ونواصل السهر مع بعضنا البعض، مما جعلنا في تلك الليلة الأولى ننام كلنا مجتمعين أنا وإسماعيل والأولاد في غرفة الضيوف الموجودة بغرفتنا بداخل الفندق.. ولم نستيقظ إلا على سماع صوت المؤذن الذي كان يردد كلمة الصلاة خير من النوم.. ولأول مرة يصلي إسماعيل بنا كلنا مجتمعين.. صلى وأطال

الصلاة فطالت الذكرى لترسخ بداخل عقولنا ذكرى الأب الإمام الذي التمّت العائلة حوله من جديد، ورغم أننا ما زلنا نشعر بالنعاس بعد صلاة الفجر، إلاّ أننا ارتدينا ملابسنا وصاحبنا إسماعيل في جولةٍ على أحد شواطئ غزة، فقد كان إسماعيل يحلم من داخل زنزانة أسره أن تلامس يداه بحر الشاطئ، وأن تدوس قدماه رمال البحر، أما طفلاي فلم يكونا قد رأيا البحر قبل يوم أمس عندما اجتازاه من العقبة الأردنية إلى سيناء المصرية لكي يلتقيا بوالدهما في ذلك اليوم، اجتازاه مسرعين دون أن يلقيا بالاً لجماله ونعومة ترابه، بل كانا يقولان متى نقطع البحر حتى نصل إلى أبينا ونعانقه.

أما اليوم فقد انتبها إلى البحر، وقالا لأبيهما هل تعلم يا والدنا أننا لم نرَ البحر قبل اليوم. قالاها وقد نسيا أنهما يوم أمس كانا على متن الباخرة التي داست الموج مسرعةً لتوصلهما إلى أبيهما وبحره.. حتى أنا لم أكن قد دست بقدمي رمال شاطئ البحر.. كم هو جميل فجر بحر الحرية.. وكم هي فرحتا يديَّ وقدميَّ بعد أن كسرتا قيد السلاسل وتحررتا بفضل الله وعون المقاومة.

مضت عدة أيام على خروج إسماعيل من الأسر، وكنا قد قرَّرنا خلالها أن نستقر في قطاع غزة المحاصر... سجناء مع زوجي بداخل القطاع المحاصر، ولكننا ورغم ذلك الحصار البغيض كنا سعداء، وما زلنا بحمد الله. لقد تمنيت أن تتوقف ذاكرتي عن حفظ ما يحدث الآن، وعن نسيان الماضي الصعب والأليم الذي مررنا به. تمنيت أن تنحصر ذاكرتي في الأيام القليلة الماضية فقط لا غير، بضعة أيام سعيدة تكفيني لأكون مرتاحة باقي أيام العمر، فما عدت بحاجة لذاكرة الدماغ ولا لذاكرة من حبر وورق..

ذكرياتٌ بلا حبرٍ و ورقٍ.. هي ذكريات الماجدة..

عبد الله البرغوثي

أبو أسامة

تمت بحمد الله تعالى بتاريخ 2012/3/2 أثناء وجودي بزنزانة العزل الانفرادي بسجن الرملة.. أنهيتها بعد أن لامست فرحة الحرية والنصر عند الماجدة وعند زوجها المقاوم... وأطفالها أمل ونور.. نور وأمل هما ما أحتاجهما بزنزانتي المعزولة.

تمّ بحمدِ الله